This item is provided to support UOB courses.

Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.

However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.

هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقررات الجامعة.

ويمنع منعا باتاَ نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الالكتروني الى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.

جامعة البحرين

كلية الآداب – قسم العلوم الاجتماعية

مقرر (اجتماع 181)

د. ناصر كاظم

مدخل إلى الأنثروبولوجيا

يشتمل محتوى المقرر على 3 فصول من كتاب "**علم الإنسان: مدخل عام**" من إعداد مجموعة من أساتذة قسم علم الاجتماع بجامعة الإمارات العربية المتحدة، وفصل واحد من كتاب "**قصة الأنثروبولوجيا**" لحسين فهيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بالرغم من وجود عدد من الكتب والمؤلفات العلمية عن علم الإنسان وفروعه وموضوعاته في المكتبة العربية، إلا أن هذه الأعمال بصفة عامة إما أن تكون أعمال مترجمة لمؤلفات أجنبية أو إسهامات متفرقة لمعالجة موضوعات جزئية عادة ما تتضمن نماذج أو أمثلة بعيدة نسبياً عن واقع المجتمعات العربية والإسلامية. وتبقى المكتبة العربية تفتقر نسبياً إلى مرجع عام عن علم الإنسان ككل يكون في متناول الطلاب الدارسين لهذا العلم ويتسم بالبساطة والشمولية والتكاملية التي هي من أهم سمات علم الإنسان.

ومن ثم قد تتعى قسم الاجتماع بجامعة الإمارات العربية المتحدة إلى إمداد المكتبة العربية بهذا المؤلف المطلوب يكون بمثابة الكتاب الدراسي الشامل ويستوفي المعايير والشروط المبتغاة والتي يأتي على رأسها الاهتمام بتضمين نماذج وأمثلة من واقع المجتمعات العربية والإسلامية بما يسهم في مساعدة الطالب على فهم مجتمعه وثقافته وتدعيم انتماءه لهما.

وقد اشترك في كتابة هذا المؤلف عدد من الزملاء بقسم الاجتماع على النحو التالي:

١ ـ د. سليمان نجم خلف : ـ علم الإنسان خصائصه وفروعه وعلاقته بالعلوم الأخرى.

ـ طريقة الدراسة في علم الإنسان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م

دار القلم للنشر والتوزيع

دار القلم

دبي ـ دوار الصقر ـ بناية الفردان ـ هاتف ٥٢٠٤٢٠ ـ فاكس ٥١٢٩١٠

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
١ ـ تصدير	٥ ـ ٧
٢ ـ الفصل الأول: علم الإنسان: خصائصه، فروعه وأهميته: (د. سليمان نجم خلف)	٩ ـ ٤٤
٣ ـ الفصل الثاني: طرق ووسائل البحث في علم الإنسان: (د. سليمان نجم خلف)	٤٥ ـ ٨٤
٤ ـ الفصل الثالث: الخصائص الطبيعية والسلالات البشرية (أ. د. سيد حامد حريز، د. السيد حافظ الأسود)	٨٥ ـ ١٢٧
٥ ـ الفصل الرابع: الثقافة الإنسانية: طبيعتها وخصائصها وأنماطها: (السيد حافظ الأسود)	١٢٩ ـ ١٦٥
٦ ـ الفصل الخامس: النظم الاجتماعية: (ا. د. عباس أحمد محمد)	١٦٧ ـ ٢١٧
٧ ـ الفصل السادس: علم الإنسان وقضايا المجتمع المعاصر: (د. عبد الله لؤلؤ)	٢١٩ ـ ٢٥٢

٢ ـ أ.د. سيد حامد حريز، : ـ الخصائص الطبيعية للإنسان
ود. السيد الأسود
٣ ـ د. السيد الأسود : ـ الثقافة الإنسانية
٤ ـ أ.د. عباس أحمد : ـ النظم الاجتماعية
٥ ـ د. عبدالله لؤلؤ : ـ المجالات التطبيقية لعلم الإنسان

سائلين الله سبحانه وتعالى أن يكلل جهودنا بالتوفيق وأن يعود هذا العمل بالنفع على أبنائنا الطلاب والدارسين.

المؤلفون

الفصل الأول

علم الإنسان
خصائصه وفروعه وأهميته

علم الإنسان
مقدمة عامة

«الإنسان ذلك الكائن الفريد!!» (جون لويس).

تقديم:

لعلّ الإنسان بدأ يتعجب من نفسه منذ أن خلقه الله واستخلفه على هذه الأرض حيث بدأ يشق طريقه للسيطرة والسيادة عليها. وقصة الإنسان الذي وجد آثار أقدام أراد أن يتتبعها ليعرف صاحبها وانتهى به الأمر إلى أن يدرك أنها أقدامه هو، هي في الواقع رمز لمدى ما يجهله الإنسان عن نفسه، ورغبته المتأصلة في استكشاف المجهول بالتقصي والمغامرة والبحث والدراسة. (محمد رياض ١٩٧٤: ٣).

والإنسان هو أكثر الكائنات الحية على كوكبنا الأرضي غموضاً «لتفردة» الفكري بين جميع الكائنات التي تدبّ على سطح الأرض، أو تسبح في البحار والمحيطات. لم يكتب لنوع من أنواع الحياة أن يسود ويسيطر على أجزاء العالم مثل الإنسان. ولم يغير كائن من وجه الطبيعة وأشكال الحياة النباتية والحيوانية مثلما فعل الإنسان، وهو بعد أعزل من جميع أسلحة القوّة التي تتمتع بها أشكال الحياة الأخرى، لكنه تفوّق عليها باستخدام قدراته الفعلية مع احتفاظه بقوى الغرائز جميعاً.

لقد تحايل الإنسان على البقاء survival في كل بيئة طبيعية وتعايش مع كل أنواع البيئات بمكوناتها النباتية والحيوانية، ومع كثير

من المثابرة والتضحيات، وعبر فترة زمنية طويلة انتصر الإنسان وبقي وتكاثر حتىٰ ملأ الأرض. وكأننا نرىٰ في هذا إشارة واضحة لقوله تعالىٰ بتفضيل الإنسان وتكريمه بين كل المخلوقات. ﴿**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم علىٰ كثير ممّن خلقنا تفضيلاً**﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٠].

لم ينتصر الإنسان ويتفوق لأنه الوحيد بين الكائنات الذي يقف علىٰ قدميه طوال حياته، ولم ينتصر لأنه الوحيد الذي يستخدم يديه في القبض علىٰ الأشياء والأدوات بدقة وإحكام تامين، ولم ينتصر لأنه الكائن الذي يرىٰ الأشياء في هذا العالم مجسمة ببعدها الثالث، ولم يتفوق لأنه يستخدم قواه الذهنية، ولم ينتصر لأنه الوحيد بين الكائنات الذي يملك كل هذه الميزات فقط، بل انتصر لأنه لا يوجد «كإنسان فرد» بل كإنسان ثقافي يظهر من خلاله الإنسان الفرد في الظروف المواتيه.

حقاً هناك كائنات كثيرة لديها حياة جماعية، ولكن الغرائز والحاجات البيولوجية النمطية الثابتة هي وحدها التي تسوقها في أنماط سلوكها الجمعي biological programming الذي لا تحيد عنه طوال حياتها وإلا انتابها الهلاك، بينما التجمع الإنساني ليس نتاج سلوك نمطي منذ الأزل وإلىٰ الأبد، بل تتغير أنماطه وقوالبه استجابة لموجهات ومواقف مختلفة، والفضل في ذلك يعود إلىٰ الثقافة الإنسانية. إنّ سلوك الإنسان في غالبه هو نتاج للبرمجة الثقافية cultural programming، بالرغم من أنّ الأسس التي انبنىٰ عليها هذا السلوك هي بيولوجية وحيوية إنما تظلّ من نوع خاص وفريد (محمد رياض: ١٧٧٤: ٤ ـ ٥).

الإنسان كما يقول جون لويس (١٩٨٦) هو نوع من الكائنات جديد كلية في جوانب هي أساسية بأجمعها لفهم طبيعته. ومن المهم أن ندرك بأنّ جوهر طبيعته الفريدة يكمن بالضبط في تلك الخصائص التي لا يشاركه فيها أي كائن آخر. وقد بلغت هذه الخصائص الجسمانية التشريحية الفريدة للإنسان وقدرته في اكتساب الثقافة

والتأهل الاجتماعي درجة عالية من التفوق حيث حلّ بها بنجاح مكان أي نمط منافس. ويحتل الإنسان مجالاً خاصاً به كلياً، إذ هو «الكائن الذي لا يتكيف مع بيئته، بل يغيرها عمداً ويسيطر عليها» (جون لويس؛ ١٩٨٦: ٦٨).

إنّ الإنسان هو النوع الوحيد الذي كان يتغير باستمرار منذ ذات اللحظة التي خلق فيها، وليس ذلك طبعاً في الشكل الجسدي، بل في طبيعته وقدراته وفي عاداته، وفي مواقفه وفي تنظيمه الاجتماعي، وفي عقليته. والإنسان وحده يملك تاريخاً مستمراً، تاريخاً من التقدّم المتواصل والنمو.

إنّ الحيوان يملك أعضاء أو جوارح معينة، ومكيف بصورة دائمة لأسلوب معين من الحياة والبيئة لا يستطيع تجاوزه. «أمّا الإنسان فله سلسلة غير محدودة من الأعضاء، ألا وهي آلاته ومكائنه. إنه يستطيع أن يكيف نفسه في كل المناخات وكل الظروف، منتشراً في كل القارات. إنّ التكيفات لا تغير نوعه؛ وتجعله تكنولوجيته وتركيبه الاجتماعي أسمى من كل العالم الحيواني. إنّ مملكة الطبيعة في الإنسان تخلي السبيل أمام مملكة الثقافة والحضارة» (جون لويس؛ ١٩٨٦: ٧٠).

الثقافة culture هي الوجه الآخر للإنسان. تشتمل علىٰ كل مقدرات الإنسان وأعماله، من الحصول علىٰ الغذاء، إلىٰ أدواته الانتاجية، وكل نتاجه التنظيمي وأفكاره وإبداعاته. لهذا لا يوجد مجتمع بشري بدون ثقافة مهما كانت درجة بدائيته. ولأن الإنسان الجماعي يتعلم ثقافته منذ نعومة أظفاره، أمكنه أن يبني باستمرار فوق ما تلقاه من ميراث. وبذلك تنمو الثقافة الإنسانية وتتفتح آفاق جديدة أمام المغامرة الإنسانية المادية أو التكنولوجية أو المعنوية والفكرية.

وإذا كان الإنسان، كما يشير محمد رياض، كائناً عضوياً حياً، فإنّ الثقافة هي الأخرىٰ تتصف بكونها حية ومتجددة، تنبع من الواقع

وتتغذى بالوراثة وتنمو بتنوع التجارب الإنسانية، وتزدهر وتثرى من خلال الاستجابات المرنة لكافة أنواع المؤثرات الداخلية منها أو الخارجية. ويتحقق النمو والازدهار للثقافات الإنسانية بشكل رئيسي عن طريق تفاعلها مع ثقافات أخرى، وبالتالي تذوب بعض عناصرها وتتشكل في صور جديدة، أو أنها كما يحدث في بعض الأحيان ترفض التفاعل والتطعيم فتنعزل وتذبل وربما تموت مع مجتمعها.

ولأن الثقافة نتاج إنساني يستجيب لكل المؤثرات، فإنها أخذت أشكالاً مختلفة عبر المجتمعات الإنسانية. لقد أدّى تفاوت البيئات والظروف الخاصة لكل مجتمع إلى تفاوت كبير في أنواع الثقافات وأشكالها؛ بعضها استقرّ على نمط معين وأخذ يتجمد لفترة طويلة، والبعض ينمو بسرعة لفترة ما، وبعضها الآخر ينصهر ويذوب في ثقافات متوسعة. لقد أدّى كل هذا إلى أن يغطي سطح الأرض لوحة فسيفسائية ثقافية مذهلة في تشكيلاتها وزخارفها وألوانها. وإننا نرى اليوم أنّ الثقافة الصناعية الحديثة قد أثرت، ولا تزال تؤثر، على هذه التشكيلات الثقافية منذ أكثر من قرن ونيف من الزمن.

لقد أدّى الاختلاف بين السلالات والثقافات منذ القدم إلى تصنيف موحد عند كل مجتمع في العالم سواء في الماضي أو الحاضر. وبعبارة محمد رياض، هناك «الناس» وهم بني جلدتي ومجتمعي ولغتي وثقافتي أنا. وهناك «الناس غيرنا»، وهم غيرنا من المجتمعات والثقافات. ولقد كان «الناس» غيرنا دائماً مثار التعجب والاستغراب عند العامة من «الناس»، ومثار فحص وتمحيص عند الخاصة من الناس. ومن هنا كانت بداية دراسة الإنسان.

والآن ماذا يفعل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) في هذا الخضم من الناس والثقافات؟ إنه باختصار شديد يقوم بما كان يفعله في الماضي الخاصة من «الناس» - «تحري طبيعة الإنسان وطبيعة الثقافات - ولكن على أسس علمية منهجية». (محمد رياض؛ ١٩٨٤ : ٦).

وتمثل المادة التي نقدمها في هذه الفصول زاداً فكرياً نسعى من خلاله إكساب القارىء مزيداً من المعرفة عن الإنسان وعوالمه الثقافية والاجتماعية. ونأمل كذلك أن يدفع بنا هذا الزاد المعرفي لنتخذ مواقف صحيحة وواقعية، بعيدة عن التعصب أو التشنج حول قضايا الهوية الثقافية، والتغير الثقافي والاجتماعي الجارية حالياً في عالمنا المعاصر، الذي كما نعلم، قد انكمش فيه اليوم بعدي الزمان والمكان بصورة حادة. وبالتالي لا عجب أن نرى تيارات المجتمع العالمي وتفاعلاته قد ازدادت بدرجة واضحة، كمؤشرات لظهور وحدة ثقافية عالمية، ذات أداء نسعى إلى تناسقه وانسجامه مع خصوصيات الثقافات الإنسانية الممتدة عبر الشعوب والقارات.

حول مفهوم علم الإنسان (الأنثروبولوجيا):

تشير لنا المقدّمة العامة السابقة أنّ الإنسان خلافاً لكل الكائنات الحية الأخرى يملتك قدرات هائلة على التخيل والتفكير. وقد وجّه الإنسان هذه القدرات عبر تاريخه الطويل للنظر إلى العوامل المحيطة به، وإلى ذاته الإنسانية المتميزة، بغية فهمها والتعرف على مكوناتها. ومنذ قديم الزمن لاحظ الإنسان الفروق القائمة بين شعوب الجنس البشري واهتمّ بمعرفة الطبيعة الإنسانية وتفسير الاختلافات في الملامح الجسمية والعادات والتقاليد والديانات والفنون وغير ذلك من مظاهر الحياة وأنماطها.

في إطار هذا الاهتمام والتساؤل تطورت دراسات مظاهر الحياة خلال العصور وتبلورت في العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر في نشأة فرع جديد من فروع المعرفة اصطلح على تسميته باللغة الإنجليزية بالأنثروبولوجيا anthropology. ويتكون هذا المصطلح أصلاً من كلمتين يونانيتين هما: كلمة أنثروبوس anthropos، ومعناها الإنسان، وكلمة لوجوس logos، ومعناها الكلمة أو الدراسة أو المعرفة المنتظمة، وبذلك جاءت هذه التركيبة اللفظية لتعني دراسة الإنسان، أو

المعرفة العلمية للإنسان. وبمعنىً آخر فإنّ مصطلح الأنثروبولوجيا يعني لفظياً «علم الإنسان».

هذا هو التعريف اللفظي للمصطلح المعرب لكلمة «الأنثروبولوجيا». ولكننا إذا أردنا تعريفاً لمضمونه وبصورة أكثر تفصيلاً، يستحسن بنا أن نقدم فكرة عما يدرسه علماء الإنسان. وهذا ما تلخصه عالمة الأنثروبولوجيا الشهيرة مارجريت ميد Margret Mead بقولها: «أنّ الأنثروبولوجي يحاول وصف الخصائص الإنسانية، البيولوجية، والثقافية للجنس البشري عبر الأزمان وفي مختلف المناطق، ويحلل الصفات البيولوجية والثقافية والمحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة، كما يصف ويحلل النظم الاجتماعية والتكنولوجية ويبحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته». (حسن فهيم؛ ١٩٨٦ : ١٣).

أما العالم الأمريكي فرانز بواس فيرىٰ أنّ الأنثروبولوجيا تدرس الإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً يشتمل موضوع دراستها جميع ظواهر الحياة الاجتماعية والإنسانية دون تحديد زماني أو مكاني. ويعرفها العالمان الأمريكيان لينتون وهرسكوفتش بأنها «دراسة الإنسان وأعماله» (زكي إسماعيل؛ ١٩٨٢ : ١٢).

أما شاكر سليم فيقدم تعريفاً في قاموس الأنثروبولوجيا الذي صدر عام ١٩٨١ يقول فيه أنّ الأنثروبولوجيا هي «علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً» (ص ٥٦) (إنّ مصطلح حضاري هنا يعني به ثقافي). الإنسان إذن هو المحور الأساسي والإطار الذي يحدد موضوعات هذا العلم بصرف النظر عن الزمان والمكان؛ إذ هما لا يقيدان موضوعه، بمعنىٰ «إنّ الأنثروبولوجيا تدرس الإنسان وأصوله الأوائل منذ أقدم فترات التاريخ، وما قبل التاريخ، ليس في بقعة معينة من العالم، وإنما في كل أنحاء العالم، وذلك من خلال حفرياته وآثاره المختلفة فيزيقية وغير فيزيقية. ولهذا كان موضوع هذا العلم

واسعاً ومترامي الجوانب من حيث اهتمامه بالجنس البشري ككل. (زكي إسماعيل؛ ١٩٨٢ : ١٣).

خصائص علم الإنسان:

لكل علم خصوصية تميزه عن غيره من العلوم، والأنثروبولوجيا ليست هي العلم الوحيد الذي يدرس الإنسان، فالعلوم الإنسانية والاجتماعية المختلفة تشترك معها في دراسته، إلاّ إن للأنثروبولوجيا خصوصية فريدة تميزها عن باقي العلوم. إنّ التساؤلات التي تطرحها الأنثروبولوجيا، ومناهج وطرق الإجابة عليها من واقع الحياة الإنسانية في الزمان والمكان تعطيها صبغة فريدة متميزة بين سائر العلوم. كم يهتم الإنسان ويتشوق لمعرفة أسباب هذا الكم الهائل من التنوع البشري في الخلق والسلوك! فلا عجب أن نرىٰ أنّ الأنثروبولوجيين يطرحون أنواعاً كثيرة من التساؤلات تتصل بأين ومتىٰ ولماذا، مثلاً، بدأ الناس يعيشون لأول مرة في المدن؟ لماذا يكون لون البشرة لدىٰ بعض الناس أكثر سمرة مقارنة بغيرهم؟ ولماذا يكون لدىٰ بعض اللغات مصطلحات خاصة باللون أكثر من غيرها من اللغات؟ ولماذا يجوز للرجال في بعض المجتمعات الزواج من عدّة زوجات بآن واحد؟ هنا تأتي الأنثروبولوجيا لتقدم لنا بعض الإجابات.

وبالرغم من أنّ هذه التساؤلات تبدو علىٰ أنها تعالج جوانب مختلفة للوجود الإنساني، إلا إنها جميعاً تشترك بشيء واحد؛ أي إنها تهتم بدراسة الخصائص المميزة للجماعات والثقافات الإنسانية، وكذلك تلك الخصائص التي تشكل التشابه بين الأنماط الثقافية والنظم الاجتماعية عبر الثقافات. ولم تدفع مثل هذه التساؤلات الأنثروبولوجيين فقط لدراسة هذا التنوع من الثقافات والنظم الاجتماعية، بل أيضاً لينظروا إليها، أياً كانت أشكالها ومستويات تطورها، بقدر واضح من الاحترام والموضوعية العلمية. ويرىٰ غالبية الأنثروبولوجيين أنّ لكل ثقافة خصوصية معينة إذ إنها تمثل تراكم تجارب فريدة ومميزة لجماعة من

الجماعات في سعيها وابتكاراتها للتكيف في بيئات طبيعية واجتماعية متنوعة ومتغيرة. وهي كذلك سجل أو خطوة في تاريخ الإنسان الذي يسعىٰ دائماً للارتقاء بقدراته لتحقيق إنسانيته ككائن ثقافي اجتماعي.

يتميز علم الإنسان عن غيره من العلوم بعدد من الخصائص الأساسية ويمكننا أن نبرزها هنا فيما يلي:

١ ـ النظرة الشمولية في دراسة الإنسان.
٢ ـ الاتجاه الكلي التكاملي في دراسة الثقافة والمجتمع.
٣ ـ استخدام المنهج المقارن.
٤ ـ الاعتماد علىٰ الدراسة الحقلية (الميدانية) في جمع المادة العلمية.
٥ ـ تركيز هذا العلم في بداياته الأولىٰ علىٰ دراسة ما يسمىٰ بالمجتمعات البدائية.
٦ ـ أنه علم تركيبي يهدف إلىٰ تجميع وتنسيق المعرفة حول الشعوب وثقافاتها ويسعىٰ للربط والتأليف بين المعارف المختلفة حول الإنسان.
٧ ـ خصوصية الفضولية الأنثروبولوجية.

١ ـ النظرة الشمولية في دراسة الإنسان:

كما أسلفنا إن موضوع دراسة هذا العلم متسع جداً، حيث إنه يشتمل علىٰ كل شيء له صلة بالإنسان، سواء جانبه البيولوجي المادي أو المعنوي الثقافي، أو بالنسبة لماضيه وحاضره. هناك بالطبع علوم كثيرة تهتم بدراسة الإنسان بطريقة ما أو أخرىٰ. فمثلاً بعضها كعلم التشريح والبيولوجيا تدرس الإنسان ككائن بيولوجي (as a biological organism)،

وتهتم العلوم الاجتماعية بشكل رئيسي بدراسة الأشكال والأنماط المميزة للعلاقات الاجتماعية، أما العلوم الإنسانية (كالتاريخ والأدب واللغات) فتلتفت لدراسة إنجازات الثقافة الإنسانية. علماً أنّ علماء الإنسان يهتمون بكل هذه الأمور إلاّ إنهم يحاولون أن ينظروا إليها من «منظور شمولي» عبر كل الأماكن والأزمنة. ومما لا شك فيه أنّ هذا المنظور الواسع يؤهل علماء الإنسان بصورة جيدة ليلتفتوا إلى دراسة طبيعة الإنسان، ذاك الموضوع الذي يظل صعباً إمساكه وضبط تجلياته بدقة. فبينما يختص الأنثروبولوجيون الثقافيون بدراسة السلوك الإنساني وأنماطه ونظمه الاجتماعية نرىٰ أقرانهم الأنثروبولجيين الطبيعيين يختصوا بدراسة بني الإنسان ككائنات بيولوجية. مع هذا فإنّ أي منهم لا يمكنه تجاهل الأعمال والاهتمامات العلمية للآخر، إذ إنّ السلوك الإنساني والبيولوجيا متداخلان ويؤثران ببعضهما في صورة وأشكال هامة وواضحة.

بإمكاننا مثلاً، أن نرىٰ كيف يؤثر التركيب البيولوجي للإنسان علىٰ بعض الممارسات الثقافية كابتكار أسماء الألوان عند بعض الثقافات. فمن المعروف أنّ الجماعات البشرية تختلف في كثافة صبغة الألوان داخل العين ذاتها التي تؤثر علىٰ قدرات بعض الجماعات في التمييز ما بين اللون الأزرق والأخضر، أو الأزرق والأسود، أو الأزرق والأخضر والأسود معاً. ولهذا السبب هناك عدد من الثقافات ترىٰ الأزرق علىٰ أنه لوناً مساوياً للأخضر أو مساوياً للأسود أو مساوياً للأخضر والأسود معاً. وبالمثل بإمكاننا أن نرىٰ كيف أنّ الممارسات والمناشط الثقافية تؤثر هي الأخرىٰ علىٰ بيولوجية الإنسان كما هو واضح في ظهور «سمة الخلية المنجلية» (the sickle - cell trait)، وما يصاحبها عادة من أعراض جسمانية ومرضية. ففي بعض مناطق العالم القديم، عندما بدأ الناس بممارسة الحياة الزراعية فإنهم قد شرعوا في تغيير البيئة حيث ـ ربما بالصدفة ـ قد أوجدوا الظروف المثالية لتكاثر البعوض (mosquitoes). وكنتيجة لهذا فقد أصبح مرض الملاريا مشكلة كبيرة، وكانت ردّة الفعل

البيولوجية تجاه هذا الخطر ظهور تركيبه جينية معينه لدىٰ أعداد كبيرة من «الناس» الذين يعيشون في المناطق الموبوءة بالملاريا، بحيث أنّ هذه التركيبة الجينية الجديدة تولد داخل الجسم مقاومة داخلية ذاتية عند هؤلاء الناس ضد هذا المرض. (Haviland; 1985: 5, Kelso; 1974: 282 - 283). ولعلّ هذا المثال يوضح لنا أهمية الأخذ بالمنظور الشمولي في دراسة الإنسان وعوالمه المختلفة.

٢ ـ الاتجاه الكلي التكاملي the holistic approach:

يتجه علماء الإنسان، عند دراستهم لأسلوب حياة مجتمع معين، للنظر إلىٰ ثقافة هذا المجتمع «ككل متكامل»، أي الربط بين الجانبين المعنوي والمادي لما يدور في الحياة اليومية للناس، وإبراز الكيفية التي ينظم بها الأفراد والجماعات وسائل معيشتهم، والمحافظة علىٰ بقائهم. لهذا لا يفحص علم الإنسان نظاماً أو نشاطاً معيناً إلاّ في إطار صلاته وترابطه وتكامله بالنظم الأخرىٰ، أيا كانت هذه الصلاة ودرجات الترابط والتكامل. وتعتبر عملية الكشف التحليلي لأشكال ودرجات الترابط والتكامل بين النظم والخصائص الثقافية من أهم أهداف البحث الميداني في علم الإنسان، إذ إنّ هذه الأهداف هي التي تدفع بالباحث عادة ليمكث فترة طويلة في دراسته الحقلية حتىٰ يتسنىٰ له في نهاية المطاف الوصول إلىٰ معرفة دقيقة تمكنه ليكشف لنا عن أشكال وأساليب الترابط والتساند، الظاهرة منها أو الكامنة، بين عناصر الثقافة أو النظم أو الظواهر أو العادات الاجتماعية المتعدّدة.

٣ ـ استخدام المنهج المقارن the comparative appraoach:

ترتبط هذه الخاصية بالنظرة الشمولية لدراسة الثقافة الإنسانية، ومع أنّ العلوم الاجتماعية الأخرىٰ تُجري أيضاً الدراسات المقارنة إلا إنّ الباحث في علم الإنسان يركز اهتمامه علىٰ المقارنة بين الثقافات عبر الزمان والمكان، وذلك للوقوف علىٰ العموميات والتعرف علىٰ المجالات التي تختلف وتتنوع فيها الثقافات الإنسانية، وتلك الأخرىٰ

التي تتشابه فيها، والنتائج المترتبة علىٰ ذلك. وتقوم المقارنة في دراسات علم الإنسان علىٰ أساس دراسة الإنسان ومظاهر سلوكه باعتبارها أنساقاً اجتماعية وثقافية مترابطة.

إنّ المنهج المقارن هو أنسب المناهج التي تستخدم في الدراسات الأنثروبولوجية. ولا يقبل علماء الإنسان عادة أية تعميمات ينتهي إليها الباحث من خلال دراسة مجتمع واحد أو حتىٰ مجتمعين أو ثلاثة من طبيعة واحدة في البناء أو الثقافة. ولا تتمّ المقارنة المنهجية إلا في إطار نماذج متعددة من المجتمعات المختلفة في أبنيتها وأنساقها وثقافاتها حتىٰ يكون التعميم قائماً علىٰ مستوىٰ عال من التجريد. وكذلك علىٰ الأنثروبولوجي الطبيعي أن تكون دراسته في ضوء المنهج المقارن الذي يتناول أكبر عدد ممكن من النماذج البشرية قديمها وحديثها ليتأكد من الخصائص الجسمانية (الفيزيقية) العامة لأنواع البشر. القديم منها والحديث، البدائي والمتحضر، وذلك للوقوف علىٰ الخصائص الفريدة التي يتميز بها نموذج إنساني ما عن النماذج الأخرىٰ من الناحية البيولوجية. ويرىٰ الأنثروبولوجي البريطاني راد كليف براون أنه بدون استخدام المنهج المقارن، والتركيز عليه في الدراسة العلمية فإنّ الأنثروبولوجيا الاجتماعية تصبح مجرد دراسة «وصفية تاريخية» لا ترقىٰ إلىٰ مستوىٰ الدراسات المنهجية العلمية (زكي إسماعيل، ١٩٨٢، ص ١٥ ـ ١٦).

٤ ـ الاعتماد علىٰ الدراسة الحقلية لتجميع المادة العلمية fieldwork

إنّ عملية التأليف والتركيب بين المعارف الخاصة بالإنسان تتطلب تجميع قدراً كبيراً من المادة الوصفية الأثنوجرافية الخاصة بالجوانب المختلف للثقافات الإنسانية. وقد استدعىٰ هذا ابتكار وتطوير طريقه بحث أنثروبولوجية لها طابع علمي متميز للحصول علىٰ هذه المادة الوصفية للثقافات. وبهذا فقد أصبح من أهمّ

خصائص الأنثروبولوجيا الثقافية، أو الاجتماعية المعاصرة اعتمادها على البحث الحقلي؛ أي المعايشة الميدانية داخل المجتمع الذي يختاره الباحث للدراسة، بعد أن انتهى عهد «الأنثروبولوجيا النظرية»، في نهاية القرن التاسع عشر، إذ أصبحت الدراسة الميدانية في الأنثروبولوجيا تقوم مقام المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية. وإذا كان للعالم في هذه العلوم معمله التجريبي فإن معمل الباحث الأنثروبولوجي هو مجتمع الدراسة الذي يختاره بدقة ليحدد من خلاله إطار بحثه في ضوء بعض النظريات التي يمتحنها من خلال دراسته الحقلية. وبناء على الدراسات الحقلية يتمكن علماء الإنسان من اختبار صحة الفرضيات والنظريات السابقة، وكذلك تطوير المعرفة في مجالاتهم المختلفة.

٥ ـ تركيز علم الإنسان في بداياته الأولى على دراسة ما يسمى بالمجتمعات البدائية أو المجتمعات القبلية البسيطة:

اهتمت الأنثروبولوجيا في بداياتها الأولى اهتماماً خاصاً بدراسة المجتمعات البدائية (primitive societies) والتي تسمى أحياناً أخرى، بالمجتمعات الماقبل كتابية (pre - literate societies)، مما دعا أعداداً من الأنثروبولوجيين ليقروا أنّ دراسة هذه المجتمعات التي تسمى بدائية هي أهم مما يميز علم الإنسان عن العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى. ولا عجب أن نرى راد كليف براون، أحد المؤسسين للأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا، يشير في مطلع القرن العشرين على أنّ الأنثروبولوجيا الاجتماعية ما هي في الواقع إلاّ علم اجتماع (سوسيولوجيا) المجتمعات البدائية. ومن أهم صفات المجتمع البدائي كنموذج عام أنه مجتمع صغير نسبياً، ومحدود الكثافة، ومتجانس، ويتصف بالعزلة، وبسيط في نظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وأنه ما قبل كتابي. وبالتالي فقد كان سهلاً دراسته دراسة كلية شمولية من قبل الأنثروبولوجيين الثقافيين والاجتماعيين.

وفي الواقع هناك مجموعة أسباب حدت بعلماء الإنسان خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لتنصب جلّ اهتماماتهم على هذا النموذج من الثقافات والمجتمعات الإنسانية، ويمكننا إبراز أهمها في ما يلي:

أ ـ إنّ هذه المجتمعات جذبت اهتمام فلاسفة القرن الثامن عشر بوصفها تمثل الحالة الطبيعية التي اعتُقد أنّ الإنسان قد عاشها قبل ظهور أنظمة الحكم المركزية.

ب ـ وجذبت كذلك اهتمام علماء الإنسان خلال القرن التاسع عشر بسبب اهتمامهم بمسألة نشوء النظم الاجتماعية وتطورها، حيث اعتقدوا أنّ دراسة هذه المجتمعات ستساعدهم في الكشف عن الشواهد المتصلة بأصول هذه النظم ونشأتها وتطوراتها اللاحقة.

جـ ـ اهتمام علم الإنسان عند نشأته في الأساس لدراسة الشعوب والثقافات «الأخرى» الغير أوروبية. وقد كانت المجتمعات البدائية ـ القبلية هي النماذج المجتمعية والثقافية السائدة آنذاك في كثير من مناطق العالمين القديم والجديد.

د ـ إنّ اختلاف هذه المجتمعات الشديد عن الثقافة الأوروبية الصناعية المتطورة، من ناحية بساطتها وغرابتها وتنوعها، قد جذب إليها الباحثين بقوّة حتى ينقلوا صور الحياة الإنسانية في هذه المجتمعات للقراء في بلدانهم.

هـ ـ إنّ تبدل هذه المجتمعات وتغيرها السريع تحت وطأة التأثير التراكمي للثقافة الأوروبية الصناعية وبسبب اندماجها وتنظيمها في دوائر الحكم الإداري الاستعماري استوجب المبادرة المستمرة والمكثفة لتوثيق ودراسة أساليب أنماط الحياة فيها قبل أن تزول وتندثر كلية، وخاصة أنها تعتبر نماذج بنائية وثقافية فريدة سوف تسهم دراستها في فهم طبيعة المجتمع الإنساني ككل (إيفانز بريتشارد؛ ١٩٧٥: ١٤ ـ ١٦).

بيد أنه في غضون القرن العشرين، وبخاصة منذ الأربعينات، ومع بداية حصول هذه المجتمعات على استقلالها وانفتاحها الواسع على الحضارات والثقافات الأخرى، وانكماش المد الاستعماري بدأت الأنثروبولوجيا تطرق في دراساتها نماذج مجتمعية وثقافية أخرى. ونرى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أنّ أعداداً متزايدة من الأنثروبولوجيين الثقافيين قد التفتوا لدراسة ما يسمى بالمجتمعات المركبة أو المعقدة، مثل المجتمعات الريفية والحضرية والصناعية الواسعة الانتشار في كل أجزاء العالم المعاصر.

٦ ـ إنه علم تركيبي: يهدف إلى تجميع وتنسيق المعرفة حول الشعوب وثقافاتها والسعي للربط والتأليف بين المعارف حول الإنسان:

إنّ علم الإنسان ـ كما يتضح من طبيعته وتعريفه ـ ضرورة الشمول والرابط بين العلوم المختلفة. فعلم الأنثروبولوجيا يركز اهتمامه على كائن واحد هو الإنسان، ويحاول فهم «جميع أنواع الظواهر» التي تؤثر فيه، على حين تركز العلوم الأخرى اهتمامها على أنواع محدده من الظاهرات أينما وجدت في الطبيعة. يشير الأنثروبولوجي الأمريكي رالف لينتون أنّ على الأنثروبولوجيين تقع مهمة تركيبه هي تحقيق التكامل بين الحقائق والمعلومات المتفرقة التي جمعها المتخصصون في العلوم الأخرى التي تدرس جوانب معينه من الإنسان وأعماله (محمد علي محمد؛ ١٩٧٤: ٥). ولهذا يجوز لنا أن نعتبر الأنثروبولوجيا أول علم من «سلسلة العلوم التركيبية» التي أخذت الحاجة إليها تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم (محمد علي محمد، ١٩٧٤: ٤٨) إنّ أحد أهداف هذا العلم الربط لجوانب المعرفة المختلفة بالإنسان بعضها ببعض وتقديم الوصف المتكامل مدعماً بالتحليل المترابط للطبيعة والحياة الإنسانيتين. إذن الفارق الرئيسي بين الأنثروبولوجيا والعلوم الأخرى التي تعنى بالإنسان هو أنها تتناول مجالاً أوسع من

الاهتمامات، وتظهر ميلاً أكثر نحو استعارة الحقائق من أي مصدر ووضعها في نظام معرفي واحد متكامل.

٧ ـ خصوصية الفضولية الأنثروبولوجية the anthropological curiosity

كما سبق أن ذكرنا تتصف الأنثروبولوجيا بكونها أكثر اتساعاً في مجالاتها بالمعنيين التاريخي والجغرافي، وأكثر شمولية وتكاملية في منهجها مقارنة بالعلوم الأخرى التي تهتم بالإنسان. والتساؤل المهم هنا كيف تختلف الأنثروبولوجيا عن العلوم الأخرى. وبمقدورنا أن نشير إلى أنّ الخصوصية المميزة للأنثروبولوجيا تكمن أساساً في إثارتها نوعاً خاصاً معيناً من الفضولية العلمية؛ أي أنها تثير نوعاً خاصاً من التساؤلات لدى المختصين بها.

يطرح علماء الأنثروبولوجيا أنواعاً كثيراً من التساؤلات، منها كبير وعام حول الثقافة الإنسانية ككل، ومنها ما هو محدود وخاص ببعض الثقافات والشعوب. فبالنسبة للتساؤلات الكبيرة العامة نرى أنّ الأنثروبولوجيين يثرون أسئلة مثلاً حول طبيعة تقسيم العمل في المجتمعات الإنسانية المتنوعة، ولماذا ظهر التقسيم؟ ومتى وكيف؟ ومتى بدأ الناس استئناس الحيوان لأول مرة؟ ومتى عرف الإنسان الزراعة البدائية؟ وكيف صار بإمكانه إنتاج غذائه؟ وكيف انعكس هذا على تطور الثقافة الإنسانية ككل؟ ومتى بدأ صناعة الأواني الفخارية وكيف؟ وما هي أثارها؟ وما هي الثورة الزراعية الأولى التي عرفها الإنسان، وكيف أثرت على تنظيم المجتمع وانطلاق تطوره؟ ومتى بدأ الناس يعيشون في المدن ولماذا؟ وما هي آثار الثورة الحضرية على مسارات الثقافة والمجتمع؟ ومتى ظهرت الدولة المركزية لأول مرة ولماذا؟ وما هي مثلاً الخصائص العامة لثقافة العصور الحجرية وتطور هذه الثقافة؟ ويتسائل الأنثروبولوجيون (الطبيعيون منهم) لماذا هناك اختلافات واضحة في شكل الجسم ولون البشرة

بعض التعميمات (مقولات عامة) التفسيرية حول أوجه التشابه أو التباين والاختلاف الكائنة بين الثقافات.

* * *

الخلفية التاريخية لعلم الإنسان:

يمكننا أن ننسب بواكير الفكر الأنثروبولوجي إلىٰ العصور القديمة. هناك تصور غربي بأنّ الأصول النظرية الأولية لعلم الإنسان قد ظهرت مع عصر النهضة الأوروبية إلا أنه من المتفق عليه بين مؤرخي العلوم أنّ الأنثروبولوجيا هي أحدث العلوم الاجتماعية علىٰ الإطلاق وأنها ما زالت في حالة تطور ويمكن القول بأنّ نشأتها كعلم مستقل بدأت منذ ١٢٠ عاماً تقريباً، وأنها تبلورت منذ ذلك الوقت كدراسة متخصصة لها كيانها المستقل.

أما قديماً فمن الممكن اعتبار الحروب والرحلات التجارية منذ عصور ما قبل الميلاد وما نجم عنها من اتصالات بين الشعوب واكتساب المعرفة بعضها عن الآخر من ناحية اللغة والعادات والتقاليد، بمثابة الجذور الأولية لدراسات علم الإنسان. وهناك شواهد أخرىٰ لجذور المادة الوصفية لشعوب المجتمعات القديمة جاءت مثلاً في كتابات عدد من الكتاب الإغريق مثل هوميروس في الإلياذة والأوديسا. وكذلك كتابات هيرودوتس الذي يعتبر في رأي معظم كتاب تاريخ علم الإنسان أول باحث أنثروبولوجي في التاريخ. فقد اشتهر بمعلوماته الوصفية الدقيقة التي كتبها عن الشعوب غير الأوروبية، وتناوله لتقاليدهم وعاداتهم وملامحهم الجسمانية والأصول السلالية لهم. وهناك من الكتابات العربية ما يمكن أن ينضوي أيضاً تحت بند الدراسات الأنثروبولوجية مثل كتاب البيروني عن الهند، والمعاجم الجغرافية العديدة التي وضعها الرحالة المسلمين مثل المقدسي، والمسعودي وابن بطوطة، وكذلك كتابات ابن خلدون حول طبيعة العمران البشري (حسين فهيم، ص ٥٢ - ٧٠).

والملامح الفيزيقية الجسمانية الأخرىٰ بين الشعوب والسلالات؟ وما هي الوظائف التكيفية التي تؤديها مثل هذه الاختلافات الجسمانية بين البشر، وكيف تتم؟

ويثير الأنثروبولوجيون كذلك أسئلة حول ما يبدو كنماذج خاصة أو فريدة بين الشعوب والثقافات، وقد تكون هذه الخاصية النموذجية المميزة لجماعة ما لون البشرة، أو لغة تحتوي علىٰ مصطلحات لغوية أكثر تنوعاً ودقة للألوان، أو أي جانب خاص بحياة المجتمع، أو قد تكمن في ظاهرة تعدّد الزوجات، أو شكل الانتاج أو الحكم. وفي الحقيقة يمكن أن تكون مثل هذه الصيغة المميزة أية سمة أو مجموعة سمات إنسانية أو عادات أخرىٰ. ويظل هذا الاهتمام بدراسة الخصائص المميزة لجماعة ما أو شعب من أهم الخصائص المميزة لميدان الأنثروبولوجيا. وبهذا علىٰ سبيل المثال، بينما قد ينظر المختص بالاقتصاد إلىٰ نظام نقدي علىٰ أنه أمراً مسلماً به، ويتسائل كيف يعمل هذا النظام، نرىٰ أنّ الأنثروبولوجي قد يسأل لماذا استخدمت بعض المجتمعات فقط النقود عبر آلاف من السنين؟ أو لماذا جاء تأثير الثقافة الصناعية الحديثة علىٰ هذا المجتمع التقليدي مختلفاً عن تأثيراتها علىٰ بعض المجتمعات الأخرىٰ؟ وباختصار إنّ جزءاً كبيراً من فضولية الأنثروبولوجيين يدور حول فهم تلك الخصائص المميزة لمجتمع أو نمط ثقافي معين.

ومن مباهج الفضولية الأنثروبولوجية أنها تدفع بصاحبها ليظل متيقظاً لمراقبة وتسجيل كل ما يجري حوله من مناشط وتجليات متصلة بالسلوك الإنساني. وهي ذاتها تدفع به أيضاً ليجد تفسيرات منطقية ومتكاملة لكثير من أوجه السلوك والعادات الاجتماعية، التي ربما تبدو لأول وهلة، علىٰ أنها غريبة وعجيبة، ولا تحمل أي معنىٰ. وهنا يكمن الدور الكبير للأنثروبولوجي الثقافي الاجتماعي الذي يقوم من خلال تجميع الكتابات الأثنوجرافية الوصفية للشعوب والثقافات ومقارنتها وتحليلها، ليتوصل في نهاية المطاف إلىٰ إطلاق

ومع بداية القرن التاسع عشر بدأ مفهوم الأنثروبولوجيا يتبلور كعلم، وكان لزاماً حينذاك أن تتوافر مادة وصفية عن ثقافات وحضارات أوروبا وغيرها حتىٰ يتسنىٰ عقد المقارنات بين الشعوب، وترتيب أساليب حياتهم تبعاً لمراحل معينة. وهنا يمكن القول أنّ إحدىٰ المساهمات الأساسية لعصر النهضة في أوروبا كانت ظهور المدونات والكتابات الكثيرة حول الرحلات التي زخرت بمعلومات عن حياة الشعوب غير الأوروبية التي ساعد علىٰ رواجها ظهور الطباعة في ألمانيا. وينجلي ذلك في كتابات هنري الملاحح وكريستوفر كولومبس وغيرهم عن رحلاتهم.

وعلىٰ ذلك فإنه من الممكن تحديد عدد من العوامل أو الحركات التاريخية الكبرىٰ التي جرت في تاريخ الشعوب الإنسانية بعامة والحضارة الغربية الحديثة بخاصة، علىٰ أنها حملت تأثيرات عامة أو مباشرة أسهمت بظهور علم الإنسان كنوع جديد من أنواع المعرفة.

أولاً: الرحلات الكبيرة التي قام بها عدد من الرحالة الكبار المشهورين سواء في الشرق أو الغرب، حيث إنها امتدت من القرن الثالث عشر حتىٰ القرن الخامس عشر الميلادي. ومنها علىٰ سبيل المثال لا الحصر رحلة ماركو بولو الإيطالي في الصين ومناطق أخرىٰ في آسيا حيث امتدت لمدة تزيد علىٰ عشرين عاماً (١٢٧١ ـ ١٢٩٥) ورحلات ابن بطوطة (١٣٠٤ ـ ١٣٧٨) حيث امتدت لفترة ٢٨ عاماً زار فيها بلدان كثيرة في آسيا وأفريقيا. وكذلك أسفار وتنقلات ابن خلدون خلال القرن الرابع عشر عبر بلدان المغرب العربي حيث زودته بملاحظات ومعارف دقيقة خاصة بأنماط الحياة والمعيشة المتنوعة للناس.

ثانياً: عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرىٰ خلال القرنيين الخامس عشر والسادس عشر، إذ قد لعبت هذه الاكتشافات الكبرىٰ دوراً هاماً

في تنمية الحس الأثنوجرافي الوصفي في الكتابة عن الشعوب والثقافات الغير أوروبية التي تمّ التعرف عليها خلال هذه الرحلات. فقد تمّ في عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرىٰ the age of discovery رحلات كل من فاسكو دا جاما البرتغالي (١٤٦٠ ـ ١٥٢٤) حول أفريقيا، واكتشاف رأس الرجاء الصالح، الطريق الجديد باتجاه الهند بحراً، ورحلة فرديناند ماجلان البرتغالي حول جنوب أمريكا، حيث اكتشف الممر في الطرف الجنوبي للقارة نحو الشرق، وتمكن من الإبحار حول العالم. وكذلك رحلة كريستوفر كولمبس الإسباني الشهيرة التي اكتشف من خلالها أمريكا عام ١٤٩٣ (حسين فهيم: ١٩٨٩).

ثالثاً: ظهور الاتجاه العلمي في الغرب الذي ظلّ ينمو باستمرار منذ القرن السابع عشر وخاصة بعد أن أرسيت دعائمه في كتابات فرنسيس بيكون (إنجلترا)، وديكارت (فرنسا)، إذ أثر هذا الاتجاه بدرجات مختلفة في تشكيل منطلقات الفكر الاجتماعي الحديث، وبلورة النظرية لعلم الإنسان خلال عصر التنوير.

رابعاً: كان للثورة التجارية التي بدأها الإسبان مبكراً ثم رسخت أهميتها كل من هولندا وبريطانيا وفرنسا لاحقاً، دوراً بارزاً في تطوير صناعة السفن وفنون الملاحة، واكتشاف الشعوب، والتعرف عليها ودخولها بهدف تحقيق المكاسب التجارية المالية.

خامساً: مما لا شكّ فيه أنّ الثورة الصناعية في الغرب منذ أواخر القرن الثامن عشر قد رسخت مبادىء ومنطلقات الثورة العلمية والفكرية هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فقد مدت البلدان الأوروبية بقوّة وإمكانات اقتصادية وسياسية جديدة كلية. إضافة إلىٰ ذلك، فقد أفرزت هذه الثورة قوىٰ وطبقات اجتماعية جديدة، مثل الطبقة البرجوازية الصناعية، التي كان لها دور فعّال في دفع البلدان الأوروبية للتطلق خارج حدودها لتحقيق مزيد من المكاسب والتراكم الرأسمالي لصالحها.

سادساً: أدّت الديناميات الاقتصادية والقوىٰ الاجتماعية الجديدة في أوروبا الصناعية إلىٰ ظهور الحركة الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. ومما لا شكّ فيه أن حركة الامتداد والتوسع الاستعماري قد دفعت بأوروبا لتقف أمام تنوع هائل من الشعوب والثقافات الغريبة عليها، الأمر الذي أسهم لأسباب متعدّدة جداً، في ظهور الرغبة في النظر إلىٰ هذه الشعوب وثقافاتها من منظور الدراسة العلمية الجديدة والجادة.

وبالتالي بإمكاننا أن نوجز هنا أنّ تلاحق عدد من الحركات التاريخية الكبرىٰ، متمثلة بالثورات أو التطورات المتلاحقة التي أشرنا إليها هنا بإيجاز كبير قد أسهمت كلها بدرجات وأشكال مختلفة في ظهور علم الإنسان كفرع من المعرفة، ركز في بداياته بصورة أساسية علىٰ «دراسة الآخر» studying the other أي الشعوب والثقافات الغير أوروبية.

مجالات علم الإنسان الرئيسية والفرعية:

هناك إجماع بين علماء الإنسان علىٰ أن علمهم ينقسم بصورة أساسية إلىٰ فرعين أو مجالين رئيسيين هما: المجال الأول الذي يهتم بدراسة الجانب الطبيعي البيولوجي (الفيزيقي) للإنسان، ويعرف بمسمىٰ الأنثروبولوجيا الطبيعية (physical anthropology). أمّا المجال الثاني فيهتم بدراسة الإنسان ككائن ثقافي اجتماعي، ويعرف باسم الأنثروبولوجيا الثقافية (cultural anthropology). ويعرف هذا الفرع في بريطانيا وبعض البلدان الأوروبية بمسمىٰ آخر هو الأنثروبولوجيا الاجتماعية (social anthropology). وهناك بالطبع داخل كل من هذين الفرعين الرئيسيين اهتمامات علمية وفروع ثانوية متخصصة في مجالات معينة. وكما أسلفنا، أنّ دراسة الإنسان من منظور شمولي تؤكد إلىٰ أنّ هناك تداخل وترابط فيما بين هذين المجالين الرئيسيين، وإنّ المعرفة العلمية التي تظهر في أي منهما تسهم، ولا شكّ، في ارتقاء معرفتنا حول الإنسان في المجال الآخر.

١ ـ الأنثروبولوجيا الطبيعية physical anthropology ظهرت الأنثروبولوجيا الطبيعية كفرع من فروع المعرفة يختصّ بدراسة الإنسان ككائن بيولوجي أو طبيعي. ولهذا فإنّ اهتمامات الأنثروبولوجيا الطبيعية ترتبط بعدد من العلوم الطبيعية مثل علم الأحياء والتشريح والوراثة ودراسات التاريخ الطبيعي. كما أنها تستخدم الوسائل العلمية والمعملية والأركيولوجية في البحوث، وذلك باعتبار أنّ الإنسان يظل، وإن كان متفرداً بخصائصه، أحد الظواهر الطبيعية التي تسود الكون. وتختصّ الأنثروبولوجيا الطبيعية أولاً، بدراسة خصائص الإنسان البيولوجية ومميزاته الجسمانية التي منحته فرادة ومكانة متميزة بين كل المخلوقات، وهيأت له قدرات لا محدودة ليكون ذاته ككائن ثقافي واعٍ بمكانته وإمكاناته علىٰ الارتقاء عبر العصور. وتهتم ثانياً، بدراسة التطور البشري من خلال دراسة وتحليل الحفريات المتصلة بالإنسان وآثاره، وتلتفت ثالثاً، إلىٰ موضوع أشكال التباين والتنوع بين الجماعات والسلالات البشرية. علماً أن كل البشر ينتمون إلى نوع الإنسان العاقل، إلاّ إن هناك اختلافات جسمانية خارجية وبيولوجية داخلية بينهم. وتمثل أشكال التباين هذه موضوعاً هاماً التفت إليه علماء الإنسان الطبيعيون بقصد تحديد ودراسة هذه الخصائص والاختلافات بين السلالات والجماعات السكانية، مثل شكل الجسم، ولون البشرة، وفصائل الدم والموروثات الجينية، ووظائف الأعضاء الداخلية المختلفة، وما إلىٰ ذلك. وتهتم رابعاً، بدراسة علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية التي يعيش فيها ويمثل جزءاً منها؛ ويشمل هذا موضوع التلاؤم والتوافق مع البيئة الطبيعية والإنسان. ومن بين الموضوعات التي يلتفت إليها العلم هنا موضوع دراسة أهمية الخصائص الجسمانية الفيزيقية، سواء الخارجية منها أو الداخلية، بكونها وسائل أو ميكانيزمات تكيفية مع البيئات الطبيعية المختلفة. وتهتم خامساً، بدراسة موضوعات الوراثة والتغذية والاختلافات بين الجنسين (الذكر والأنثىٰ) وما يتصل بها من موضوعات علمية متعدّدة.

ولقد مرّ على الأنثروبولوجيا الطبيعية وقت كان الاهتمام الرئيسي فيها موجهاً نحو عمليات القياس للأعضاء الجسمية الخارجية، ومحاولة تصنيف السلالات والأجناس البشرية، إلاّ أننا نجد الأنثروبولوجي الطبيعي في وقتنا الحاضر، كنتيجة لتطور العلوم الطبيعية السريع، يستعين بعلم الوراثة والكيمياء العضوية، وعلم التغذية والبيئة لتحقيق فهم أفضل للتنوع البشري وأساليب التكيف والتطور لدى بني الإنسان في كل بيئاتهم المختلفة.

٢ ـ الأنثروبولوجيا الثقافية cultural anthropology يختصّ هذا الفرع بدراسة الإنسان ككائن ثقافي يعيش في مجتمع، له ثقافة مميزة سواء في الحاضر أو الماضي، وعبر كل الأماكن والشعوب. وإذا كان هذا الفرع يحمل مسمى الأنثربولوجيا الاجتماعية، كما هو في بريطانيا، فإننا لا نرى أنّ هناك جدوى حقيقه في التمييز بين الأنثربولوجيا الثقافية والأنثروبولوجيا الاجتماعية. وقد جاء هذا التمييز أصلاً للتفريق بين الأنثربولوجيا الأمريكية والأنثربولوجيا البريطانية، باعتبار الأولى تركز بشكل أولي على أشكال وأنماط الحياة الثقافية للمجتمعات، بينما اهتمت الثانية (البريطانية) بصورة رئيسية بدراسة الإنسان والنظم الاجتماعية في علاقاتها وترابطها مع بعضها البعض في شبكة من العلاقات والبني الاجتماعية. ويظل التمييز أمراً نسبياً، قد يختلف من باحث إلى آخر، أو من موضوع لآخر، أو من واقع اجتماعي لواقع آخر (عباس أحمد؛ ١٩٨١: ١٠) إضافة إلى ذلك، إن كان مثل هذا التمييز قد اكتسب قدراً من المصداقية أو الوضوح في الماضي، فإننا نرى اليوم ومنذ أكثر من ثلاثة عقود مضت، أنّ الأنثروبولوجيين الثقافيين الأمريكيين يلتفتون إلى موضوعات بحثية ذات طابع ثقافي اجتماعي متداخل بآن واحد، وكذلك الأمر بالنسبة لأقرانهم في بريطانيا أو غيرها من الدول الأوروبية.

وبما أنّ الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بدراسة الثقافة الإنسانية من منظور واسع جداً فقد برز كنتيجة لهذا عدّة تخصصات أو مجالات

فرعية داخلها وهي:

أ ـ الأركيولوجيا (علم الآثار) وبخاصة علم آثار ما قبل التاريخ.

ب ـ الأثنولوجيا (الدراسة المقارنة والنظرية لثقافات الشعوب).

ج ـ اللغويات (دراسة اللغة وترابطها بالثقافة والمجتمع).

د ـ الأثنوجرافيا (الدراسة الوصفية التسجيلية لثقافة مجتمع معين).

أ ـ علم الآثار (الأركيولوجيا) archeology

المعنى الدقيق لكلمة أركيولوجيا هو «دراسة القديم». وتهتم هذه الدراسة بالحفر والتنقيب عن آثار الماضي البعيد للإنسان بهدف استنباط المعرفة حول نظم وإعادة بناء تطور ثقافته وأنماط حياته الاقتصادية والاجتماعية القديمة. ومن هذا المنطلق فهي تمثل فرعاً من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية، تركز الدراسة فيه على كشف وتحليل ماضي الثقافة الإنسانية وأشكال تطورها. ويعتمد علماء الآثار في دراساتهم على ما يعثرون عليه أثناء التنقيب من بقايا مادية تركها الإنسان، حيث أنّ هذه الأشياء المادية، وليست الأفكار والمفاهيم، هي التي تبقي وتحفظ كشواهد على الماضي.

ويقوم علماء الآثار بدور المؤرخين بين فروع الأنثروبولوجيا إذ إنهم يحاولون إعادة بناء الأحداث والتحولات والإنجازات الخاصة بماض الإنسان، هذا من جهة، وأمّا من جهة ثانية، فإنهم خلافاً للمؤرخين الذي يهتمون فقط بدراسة تاريخ الإنسان منذ خمسة آلاف سنة؛ أي منذ أن تمّ ابتكار الكتابة والتدوين وحفظ السجلات، نرى أنّ عالم الآثار، وبخاصة عالم آثار ما قبل التاريخ pre - historic archeologist يلتفت إلى تجارب الإنسان وإنجازاته منذ أكثر من مليون سنة قبل أن عرف ابتكار واستخدام الكلمة المكتوبة.

ومن خلال دراسة مخلفات الشعوب والجماعات القديمة بإمكان

عالم الآثار أن يجمع الشواهد لأشكال ومسارات تطور الثقافات وتغيرها، وتفاعلها مع بعضها بعضاً. وبما أنّ العلماء لا يمكنهم أن يجروا التجارب على البشر كما يتمّ إجرائها على الحيوانات حتى يعرفوا ماذا يمكن أن يحدث في بعض الحالات أو الظروف. إنما بإمكانهم وضع فرضيات، مثلاً حول التغير الثقافي في نطاق ظروف معينة، ومن ثمّ بالإمكان التحقق منها أركيولوجيا عن طريق البحث والتنقيب في مناطق ظهرت فيها فعلاً مثل هذه الظروف. وبالرغم من أنّ رياح الزمن قد بعثرت الكثير الكثير من مخلفات وشواهد ماضي الإنسان الثقافي، إلا إن علماء الآثار لا يكفون في سعيهم ودأبهم للتعرف على الجذور الأولى للثقافة الإنسانية.

ب ـ الأثنولوجيا (علم الدراسة المقارنة للثقافات الإنسانية) ethnology

تبدأ الأثنولوجيا حيث تقف الأركيولوجيا، بمعنى أنه بينما يدرس عالم الآثار ثقافات الماضي نرى أنّ الأثنولوجي يركز اهتمامه على دراسة الثقافات في الزمن الحاضر. وفي حين أنّ عالم الآثار يبحث في البقايا المادية ليكشف بعض أنماط وتجارب العيش الإنساني، نرى الأثنولوجي يركز ملاحظاته على مشاهد السلوك الإنساني المعاشة فعلاً، التي يمكنه إجراء المشاركة والتفاعل معها، ومناقشة أبناء الثقافة التي يحاول فهمها.

أما المعنى اللفظي لكلمة «أثنولوجيا» هو الدراسة المنتظمة للأجناس أو الشعوب، إلا أنّ المعنى المتداول لهذه الكلمة يشير إلى دراسة التراث الإنساني للشعوب، أو الدراسة التحليلية المقارنة للثقافات الإنسانية. ويستخدم مصطلح الأثنولوجيا في أحيان كثيرة، خاصة في أوروبا للإشارة إلى الأنثروبولوجيا الثقافية بصفة عامة، وقد بدأ استخدام هذا المصطلح في عام ١٨٢٩ عندما أطلق الفرنسي أدواردز اسم «جمعية باريس الأثنولوجية» على أول رابطة للباحثين الأنثروبولوجيين في فرنسا (حسين فهيم؛ ١٩٨٦). ويشير

الأنثروبولوجي زكي محمد إسماعيل إلى أنّ الأثنولوجيا تعني «دراسة الشعوب والسلالات دراسة تاريخية مقارنة تتم عبر الزمان وتبحث في الأصول الأولى للنوع الإنساني العاقل وتطوره حتى العصر الحاضر. ولهذا فهي تهتم بالمقارنة والتحليل من خلال نظرة تاريخية ويدخل في إطار الأثنولوجيا دراسة أصول الحضارات والمناطق الثقافية، وهجرة الثقافة وانتشارها من منطقة إلى أخرى والسمات النوعية لكل من هذه الثقافات (١٩٨٢، ص ٢٣).

جـ ـ الأثنوجرافيا (الدراسة الوصفية التسجيلية لثقافة مجتمع محدد) ethnography

تعتبر الدراسة الحقلية (الميدانية) من المرتكزات الأساسية التي تعتمد عليها الدراسات الأثنولوجية. ويتحقّق هذا عادة عن طريق إجراء الدراسات الأثنوجرافية. وتعني الأثنوجرافيا الوصف المنهجي الدقيق لثقافة معينة في زمان ومكان محددين، على عكس الأثنولوجيا التي تهدف إلى التنظير العام؛ أي وضع فرضيات ونظريات حول الثقافة الإنسانية ككل، ولا تعتمد في ذلك على الدراسة الوصفية فقط، وإنما تتضمن المقارنة والتحليل أيضاً. وكما يقال في صورة تشبيه مجازي، أنّ الأثنوجرافي هو أركيولوجي، إلاّ إنه يلتقط مادته الأركيولوجية وهي معاشة حية، وليس كبقايا ميتة. وفي حين أنّ الأثنولوجيا تلجأ عادة إلى التعميم نرى أنّ الأثنوجرافيا تخصص لوصف السلوك الاجتماعي وأنماطه لثقافة معينة. وبهذا تشكل المادة الأثنوجرافية قاعدة أساسية لعمل الباحث الأثنولوجي، فالأثنولوجيا والأثنولوجرافيا مرتبطان إذن وتكمل الواحدة الأخرى (حسين فهيم، ١٩٨٦، ص ١٥).

الأثنوجرافيا لا تشكل تخصصاً فرعياً بحد ذاتها، كما هو الحال بالنسبة مثلاً للأثنولوجيا أو الأركيولوجيا أو اللغويات الأنثروبولوجية، إنما هي أصلاً طريقة أو أسلوب لرسم ملامح الثقافة والحياة الاجتماعية المراد دراستها. إنّ أي عالم من علماء الإنسان الثقافيين

الاجتماعيين أو الأركيولوجيين أو اللغويين يصبح اتنوجرافياً خلال فترة ما، أي إنه يستخدم الطريقة الأثنوجرافية أثناء قيامه بالدراسة الحقلية في الثقافة التي انبرىٰ لدراستها.

ويشار عادة إلىٰ أنّ الأثنوجرافيا، حسب تعريفها الشائع والعام (أي دراسة الثقافات المختلفة دراسة وصفية غير تفسيرية في المقام الأول) قد نشأت من خلال كتابات الرحالة القدامىٰ الذين كانوا يسجلون مشاهداتهم عن الجماعات والشعوب المختلفة حضارياً. وإليهم يرجع الفضل في نشأة أو اتساع نطاق الدراسات الأثنوجرافية، وإن لم تكن كتاباتهم تلك تقع في إطار الدراسات المنهجية المنظمة (حسين فهيم، ١٩٨٩، وزكي محمد إسماعيل ١٩٨٣).

د ـ اللغويات (دراسة اللغة والثقافة) linguistics

لعلّ أهم سمه مميزة للإنسان هو كونه كائن ناطق. علماً أنّ البشر ليسوا الوحيدين في استخدام الرموز للتواصل فيما بينهم، حيث تشير الدراسات الحديثة علىٰ أنّ الصيحات والإشارات التي تستخدمها بعض الحيوانات الأخرىٰ، وبخاصة الرئيسيات العليا، تؤدي بعض وظائف مماثله للغة الإنسانية. مع كل هذا لا يوجد هناك أي كائن قد طور نظام رمزي معقد للاتصال والتفاعل كبني الإنسان. وتظل اللغة الإنسانية في نهاية المطاف الأداة الرئيسية التي تساعد الناس ليحافظوا علىٰ ثقافاتهم وينقلوها من جيل إلىٰ جيل.

نشأ هذا الفرع من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية نتيجة للعلاقة الوثيقة بين اللغة والحياة الإنسانية بصورة عامة، ويعرف بمسمىٰ اللغويات. ويهتم علماء الإنسان اللغويون linguists بدراسة اللغات المختلفة، لأن اللغة في تصورهم لها أهمية خاصة في مجال دراساتهم لمراحل تطور الإنسان القديم وتفاضله عن الحيوان، وهي تمثل كذلك وعاء للفكر، وأدة للتعبير، ووسيلة للاتصال والتفاعل بين أفراد المجتمع الواحد. كذلك وجد الباحثون الأنثربولوجيين أنّ اللغة في

أي مجتمع تعتبر بمثابة مرآة تعكس الإطار الثقافي والمستوىٰ الحضاري لأفراد مجتمع معين في زمن معين. كما وجدوا أيضاً أنّ اللغة تؤثر في تحديد تصورات ومدركات الأفراد للأشياء، والعالم من حولهم، وتعبر عن المعاني المباشرة والرمزية لأحاسيسهم ومشاهداتهم. ويهتم الباحثون اللغويون عادة بدراسة اللغة من جوانب وزوايا مختلفة أهمها:

١ ـ علىٰ المستوىٰ الوصفي، أي وصف اللغة من حيث صيغ الجمل وتراكيبها، وتصريف الأفعال للتعرف علىٰ منطقها الداخلي، وذلك خاصة بالنسبة للغات الغير مكتوبة الخاصة بالمجتمعات البدائية البسيطة التي التفت إليها علماء الإنسان في المراحل الأولىٰ لتطور علمهم.

٢ ـ من الناحية التاريخية، أي دراسة كيف تطورت اللغات وكيف أثرت ببعضها بعضاً عبر الزمن. وتمكن فائدة هذا النوع من الدراسات اللغوية في إلقاء الضوء علىٰ أشكال الانتشار الثقافي وتطور الثقافات.

٣ ـ من الناحية الاجتماعية، وذلك بتشخيص الصلة القوية القائمة بين لغة معينة وناطقيها ومراتب وأساليب حياتهم الاجتماعية، ويركز الباحث هنا علىٰ لغة مجتمع ما في إطارها الاجتماعي، من حيث استخداماتها، وكيفية توظيفها، والمواقف الاجتماعية المؤثرة والمتصلة بمثل هذه الاستخدامات.

٤ ـ دراسة ما اصطلح علىٰ تسميته باللغة الصامتة silent language، والتي تتضمن الحركات والإيماءات الجسمية والإشارات الرمزية المستخدمة لدىٰ أبناء ثقافة معينة.

صلة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرىٰ:

يتضح مما تقدّم أنّ الأنثروبولوجيا تتصل من خلال مجالاتها واهتماماتها العلمية المختلفة بعدد كبير من العلوم الأخرىٰ. وهذا طبعاً

يمثل نتيجة حتمية متوقعة كونها علم يدرس الإنسان بصورة شمولية؛ أي من جوانبه المختلفة، وكونها كذلك بأنها علم تركيبي؛ أي يعتمد أساساً على التنسيق والربط بين المعارف المختلفة حول الإنسان.

أ ـ الأنثروبولوجيا الطبيعية وصلتها بالعلوم الطبيعية:

كما أسلفنا يدرس هذا التخصص العلمي جسم الإنسان سواء من حيث صفاته ومقاييسه، أو من حيث أسلافه وأجداده وكيفية انتشاره، وأحياناً يطلق على هذا التخصص اصطلاح «علم الأحياء البشرية» وبهذا نرى أنّ هذا المجال له صلة قوية بالعلوم الطبيعية حيث يهتم بدراسة علم التشريح وعلم الحياة وعلم العظام ومورفولوجيا الإنسان. ولهذا يدرّس في معظم الجامعات الأوروبية في كليات الطب والعلوم، وإن كان يدرّس أحياناً، كما في الولايات المتحدة الأميريكية، في كليات الآداب والعلوم الاجتماعية في أقسام الأنثروبولوجيا.

فبالنسبة للعلاقة بين الأنثروبولوجيا الطبيعية وعلم الحياة (البيولوجيا) فإنها علاقة واضحة، لأن الدراسة الطبيعية للإنسان في جوهرها دراسة بيولوجية. أما علاقتها بعلم التشريح فهي قوية جداً لأنهما يعالجان عدداً من المشكلات المشتركة. فالأنثروبولوجيا الطبيعية تدرس الإنسان ككائن بيولوجي حيوي وتحلل الاختلافات السلالية. وزيادة على ذلك إنّ الأنثروبولوجي الطبيعي بحاجة ليس فقط إلى دراسة التشريح بل أيضاً الإلمام النسبي ببقية فروع الطب العامة. وكذلك فعلاقة هذا التخصص بعلم الوراثة، وبخاصة الوراثة البشرية، واضحة بشكل جلي، إذ إنّ دراسات الجماعات السكانية والسلالية تعتمد بشكل جوهري على إلمام الباحث بموضوعات الوراثة ومبادئها. وقوانينها ومقاييسها ومشكلاتها العلمية.

أما بالنسبة لصلة الأنثروبولوجيا الطبيعية التي تختصّ بدراسات «الإنسان الحفري» فترتبط بشكل واضح بعلم الآثار ودراسات ما قبل التاريخ، وتتصل كذلك بسبب نوع دراستها بعلوم الأرض، وأهمها

الجيولوجيا العامة. والإلمام العلمي للأنثروبولوجي الطبيعي في الأركيولوجيا والجيولوجيا يمكنه بلا شك من التعامل مع منهج التنقيب والحفر وأساليبها من أجل الحصول على البقايا العظمية للإنسان، وتمكنه كذلك المعرفة في هذين المجالين في دراسة التشكيلات الجيولوجية للمكان الذي يعثر فيه على العظام المنشودة؛ وبالتالي فإنّ هذه المعرفة ستساعده في تكوين الأفكار السليمة حول عمر وخصائص الحفريات التي يتكشفها.

ب ـ الأنثروبولوجيا الثقافية الاجتماعية وصلتها بالعلوم الاجتماعية والإنسانيات:

يقصد بالعلوم الاجتماعية تلك الدراسات التي تستخدم المنهج العلمي في دراسة المظاهر المختلفة للحياة الإنسانية. وعلى ذلك يدخل في دائرة هذه العلوم الأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والاقتصاد، والعلوم السياسية، هناك أيضاً مجالات معينة من النشاط الإنساني تندرج تحت ما يعرف بالدراسات الإنسانية أو (الإنسانيات) مثل التاريخ، والفنون، ودراسة الأديان، واللغات. فإذا نظرنا مثلاً إلى موضوعات الدراسة بين علم الاجتماع والأثنولوجيا نجد أنّ هناك تشابها وتداخلاً واضحاً. إلاّ أن هناك اختلاف واضح بينهما من ناحية تركيز كل منهما على دراسة نوع معين من المجتمعات. فبينما اهتمت الأثنولوجيا منذ بدايتها بالتركيز على دراسة المجتمعات غير الغربية والتي تتصف بصغر الحجم وبساطة التكوين والانعزال عن الحضارة الأوروبية. ركز علم الاجتماع دراساته وبلور نظرياته على أساس الخبرة الإنسانية، والعمل الاجتماعي في المجتمعات الغربية، وبصفة خاصة المجتمعات الصناعية الرأسمالية. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحديث، فهناك أيضاً فروقاً جوهرية بين الأثنولوجيا وعلم الاجتماع من حيث النشأة العلمية لكل منهما ووسائل جمع المادة وتحليلها واستخلاص النظريات والفروض منها.

وفي مجال علم النفس، نجد أنّ الأنثروبولوجيا قد استمدت الكثير من مفاهيم علم النفس الفردي والاجتماعي خاصة فيما يتصل بدراسات التأثير المتبادل بين الثقافة والفرد، وعمليات التكيف الاجتماعي واكتساب الثقافات إلىٰ جانب استخدام بعض المقاييس والاختبارات النفسية.

إنّ ظهور ميدان الأنثروبولوجيا السيكولوجية (النفسية) أو ما يسمىٰ غالباً «بدراسات الثقافة والشخصية) في الولايات المتحدة الأمريكية منذ الأربعينات من هذا القرن ليدل بوضوح عن مواطن الالتقاء والتأثير المعرفي المتبادل بين علم النفس من جهة والأنثروبولوجيا الثقافية من جهة ثانية. أما بالنسبة للأنثروبولوجيا الاجتماعية فنرىٰ أنّ إيفانر بريتشارد يؤكد أنّ علم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية يدرسان نوعين مختلفين من الظواهر. فعلم النفس يدرس الحياة الفردية بينما تدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية الأنساق والعلاقات الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية. وقد يلاحظ علم النفس وعالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية نفس الأفعال في السلوك الواقعي. ولكنهما يدرسان تلك الأفعال علىٰ مستويات مختلفة من التجريد.

إذا انتقلنا إلىٰ مجال الدراسات الإنسانية أو (الإنسانيات) نجد مثلاً أنّ الصلة بين الأنثروبولوجيا والتاريخ قديمة، إذ أنّ الدراسة العلمية للأنماط الثقافية والاجتماعية لأي بحث تتطلب معرفة وافية بالخلفية التاريخية الخاصة بهذا المجتمع. وبصفة عامة فالوقوف علىٰ تاريخ الحضارات الإنسانية، وكشف النقاب عن الإنسان وسبل القديم حياته، إلىٰ جانب طرح قضية تغير الثقافات وتطورها عبر الزمن تعتبر كلها أموراً تمثل محوراً رئيسياً في دراسات علم الإنسان بتخصصاتها المختلفة. وبينما تشترك أيضاً كل من الأنثروبولوجيا والإنسانيات في دراسة الفن والدين والموسيقىٰ، إلاّ أن الأنثروبولوجيا تتناول هذه الموضوعات عادة علىٰ المستوىٰ الشعبي وفي إطار المجتمعات أو

الجماعات الصغيرة، بينما تركز الإنسانيات علىٰ دراسة هذه الموضوعات علىٰ المستوىٰ العام، أي في الإطار الثقافي العام (ثقافات المجتمعات الكبرىٰ). نجد مثلاً إنّ الفنانين يتجهون في دراساتهم إلىٰ وصف وتحليل الأعمال الفنية التي ظهرت في حضارات معينة ويتناولها في إطار زمني معين كعصر النهضة أو التنوير وخلافه، أمّا الباحث الأنثروبولوجي فيتناول عادة الفنون التي ظهرت علىٰ المستوىٰ الشعبي والمحلي.

وأيّاً كان الأمر، فالأنثربولوجيا منهج يلتزم بالشمول والترابط علىٰ أساس أنّ الإنسان وحدة متكاملة من الكيان الجسماني والتراث الثقافي. وتستلزم هذه النظرة الاعتماد علىٰ العلوم والدراسات الأخرىٰ كل في مجال تخصصه، وتكون مهمة الأنثروبولوجيا إذن هي ربط الأجزاء بعضها ببعض، وتقديم وصفاً مترابطاً متكاملاً للطبيعة والحياة الإنسانية.

أهمية دراسات علم الإنسان:

لماذا يدرَّس علم الإنسان ضمن المناهج الدراسية في كثير من الدول علىٰ المستويين الثانوي والجامعي؟ وما الذي يستفاد به من موضوعات ونتائج دراسات علم الإنسان علىٰ المستوىٰ الفكري والعملي؟

يمكن القول في هذا الشأن، أنّ جوهر علم الإنسان هو تقديم معرفة متكاملة عن الإنسان كوحدة مترابطة في ذاته باعتباره كائناً حياً ذا سمات فريدة، وكجزء من الطبيعة بمظاهره المتعدّدة، ومع غيره من البشر، هذا من جهة. أما من جهة أخرىٰ، فإنّ منهجه المتميز الذي يجمع في استخدامه بين أساليب البحث العلمي، والمتطلبات الفكرية، التأملية أحياناً، بل واتخاذ المواقف نحو ضرورة الفهم المتكامل للحياة الإنسانية ومقوماتها، والعمل علىٰ تأكيد إنسانية، ونسبية أسلوب حياته، والحفاظ علىٰ حضارته التي هي في حقيقة

الأمر مجمل نتاج المكان والزمان، والعقل البشري عبر العصور والأزمنة.

ونظراً لأن محصلة التعليم هو تكامل المعرفة وليس تجزئتها، يقدم «علم الإنسان» نموذجاً لهذا التكامل، مع الأخذ في الاعتبار أنه ليس هناك «علم أفضل» من آخر، فالعلوم جميعها لها أهميتها وضرورتها، وهي تخدم في مجموعها المعرفة التي يسعىٰ إليها العقل البشري والتي يستخدمها، أو يسيء استخدامها أحياناً، في معاشه.

إنّ لعلم الإنسان دور كبير - ولا شك - في خدمة الفكر والعمل الإنساني، إذ يبدو ذلك جلياً في إمداد العلوم الأخرىٰ التي تدرس الإنسان من جوانب متعدّدة بقدر كبير من الموضوعية والنسبية لظروف المجتمعات البشرية. لقد أصبحنا لا ننظر إلىٰ أنماط السلوك التي تختلف عن الأنماط الغربية علىٰ أنها أقل تقدماً أو أقل منطقية، وإنما ننظر إليها اليوم باعتبارها حلولاً بديلة لمشكلات عامة. وكذلك أصبحنا ننظر إلىٰ أساليب السلوك وإلىٰ النظم الاجتماعية التي لم تكن تحمل لنا بالنسبة لذاتها معنىٰ معيناً علىٰ أنها تمثل - في حقيقة الأمر - أجزاء من كيانات كلية متكاملة نطلق عليها مفهوم «الثقافة».

إضافة لما تقدم، إنّ فهمنا المتزايد بآلية حياتنا البيولوجية، وبدراستنا المتعمقة لأبداننا وحاجاتها، وسلوكنا الاجتماعي قد أضفىٰ المعرفة القيمة بصلة أبداننا، ونمطية تشكيلها وأدائها لوظائفها بمسار الحياة الإنسانية، وتعمير الأرض والانتشار فيها عبر الأزمنة.

لقد أسهم «علم الإنسان» في إلقاء الضوء علىٰ إمكانيات العقل الإنساني الهائلة، كما أوضح أيضاً المخاطر الجسمية من تجاوزات هذا العقل في التعامل مع البيئة والناس. وكما كتب الأنثروبولوجي الأمريكي كلايد كلوكهون في كتابه مرآة للإنسان إنّ «الأنثروبولوجيا تمسك بمرآة ضخمة أمام الإنسان وتتيح له النظر إلىٰ نفسه، ليرىٰ ما فيه من اختلافات لا حدّ لها» (١٩٨٥ : ١١). وتفيد هذه العبارة بأنّ

الدراسات الأنثروبولوجية تضع أمام الإنسان سجلاً ضخماً يرصد له قدراته وابتكاراته في صنع عوالمه الثقافية والاجتماعية المتنوعة. وتشير كذلك ضمناً، أنه بإمكان الإنسان المعاصر أن يسخر كل هذا التنوع، كل هذه المرايا، لتقلي أمامه أضواء تفيده في أحوال تكيفه وبناء عوالمه الحاضرة والمستقبلية وهو يسعىٰ للارتقاء بإنسانيته ككائن ثقافي.

نقاط هامة (خلاصة):

١ ـ الأنثروبولوجيا بصفة عامة هي دراسة الإنسان بصورة شمولية، من حيث هو كائن حي طبيعي، وعضو في مجتمع، وكائن ثقافي قادر علىٰ صناعة الثقافية والتأثر بها والتأثير عليها.

٢ ـ المجالات الرئيسية للأنثروبولوجيا هي: الأنثروبولوجيا الطبيعية (أو الفيزيقية) والأنثروبولوجيا الثقافية ـ الاجتماعية ويشتمل كل فرع من هذين الفرعين الرئيسيين علىٰ عدد من المجالات أو الميادين الفرعية المتخصصة، التي تظل مترابطة فيما بينها.

٣ ـ خلافاً لعدد كبير من العلوم الأخرىٰ تتصف الأنثروبولوجيا بدراسة المجتمع الإنساني وثقافاته من منظور «كلي تكاملي»: أي الربط بين النظم الاجتماعية المختلفة والمؤثرات المختلفة التي تعطي الحياة الثقافية والأشكال التنظيمية الاجتماعية أنماطها المتميزة عبر الزمان والمكان.

٤ ـ الأنثروبولوجيا هي علم تركيبي، أي يسعىٰ المشتغلون فيه دائماً للتنسيق والتأليف بين المعارف التي تظهر داخل الأنثروبولوجيا ذاتها أو خارجها بغية وضع أطر وتصورات جديدة مبتكرة حول الإنسان وعوالمه الاجتماعية والثقافية والسيكولوجية.

٥ ـ تعتبر الأنثروبولوجيا أحد فروع المعرفة التي لها جانباً علمياً وآخراً إنسانياً في نفس الوقت. وبالتالي فهي تتصل بالعلوم الطبيعية

والاجتماعية والإنسانيات وتستخدم الوسائل والمناهج الخاصة بها بهدف الوصول إلىٰ الشمول والتكامل في فهم الطبيعة الإنسانية وتجلياتها علىٰ مستوىٰ السلوك الاجتماعي والظواهر الثقافية.

٦ ـ تعتمد الدراسات الأنثروبولوجية بشكل أساسي علىٰ الدراسة الحقلية كطريقة لجمع المادة العلمية، وعلىٰ إجراء المقارنات المنهجية الدقيقة للنظم الاجتماعية للثقافات الإنسانية بهدف الوصول إلىٰ بعض النظريات العامة حول بني الإنسان وعوالمهم.

المراجع التي استخدمت في كتابة هذا الفصل:

١ ـ حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٦.

٢ ـ حسين فهيم، أدب الرحلات. سلسلة علم المعرفة، الكويت ١٩٨٩.

٣ ـ شاكر سليم، قاموس الأنثروبولوجيا. نشر جامعة الكويت، الطبعة الأولىٰ ١٩٨١.

٤ ـ زكي محمد إسماعيل، الأنثروبولوجيا (والفكر الإسلامي)، شركة عكاظ للنشر ١٩٨٢.

٥ ـ محمد رياض، الإنسان: دراسة في النوع والحضارة، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٤.

٦ ـ محمد علي محمد، دراسات تمهيدية في علم الإنسان، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية ١٩٧٤.

٧ ـ عباس أحمد، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مكتبة المكتبة. العين الإمارات. ١٩٨١.

٨ ـ جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الفريد ترجمة د. صالح جواد الكاظم. الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٦.

٩ ـ إيفانز بريتشارد، الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ترجمة أحمد أبو زيد. الطبعة الخامسة ـ الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية، ١٩٧٥.

١٠ ـ William Haviland, Cultural Anthropology, Holt, Rine hart and Wilson, New york: 1981.

١١ ـ A.J. kelso Physical, Anthropology, Lippincott company: New York, 1974.

١٢ ـ Clyde Kluckhohn Mirror for Man. University of Arizona Press: Tuscon, 1985.

قراءات مقترحة:

هناك عدد كبير من الكتب الأجنبية والعربية التي تتناول موضوع تعريف الأنثروبولوجيا وتحديد مجالاتها وخصائصها وعلاقتها بالعلوم الأخرىٰ. ونقترح أن يرجع الطالب إلىٰ أياً من الفصول التالية:

١ ـ الفصل الأول من كتاب «مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة» تأليف الأنثروبولوجيين الأمريكيين رالف بيلز وهاري هويجر. ترجمه إلىٰ العربية محمد الجوهري وآخرون، صدر ١٩٧٦ الجزء الأول (ص ٩ ـ ٢٨).

٢ ـ الفصل الأول في كتاب إيفانز بريتشارد، الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ترجمة أحمد أبو زيد، وعنوان الفصل «مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية». صدر الكتاب بالعربية. الطبعة الخامسة ١٩٧٥ (الصفحات ٥ ـ ٢٣). الهيئة المصرية للكتاب ـ الإسكندرية.

٣ ـ الفصل الأول وعنوانه «في تعريف الأنثروبولوجيا وتاريخها» في كتاب حسين فهيم قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تايخ علم الإنسان. سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٦ (الصفحات: ١٣ ـ ٣٩).

٤ ـ الفصل الأول (مفهوم ومهام وحقل الأنثروبولوجيا) في كتاب محمد رياض، الإنسان: دراسة في النوع والحضارة. دار النهضة بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٤ (الصفحات: ٩ ـ ٣٧).

٥ ـ الفصل الأول (حول مفهوم الأنثروبولوجيا، خصائصها، أقسامها وعلاقتها بالعلوم الأخرىٰ) في كتاب زكي محمد إسماعيل، الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي. شركة عكاظ للنشر، الطبعة الأولىٰ ١٩٨٢ (الصفحات: ١١ ـ ٢٩).

٦ ـ الفصل الأول (طبيعة الأنثروبولوجيا ومجالها) في كتاب محمد الجوهري، الأنثروبولوجيا: أسس نظرية وتطبيقات عملية. مطابع سجل العرب. القاهرة: الطبعة الأولىٰ ١٩٨٠. (الصفحات: ١٧ ـ ٥٦).

الفصل الثاني

طرق ووسائل البحث في علم الإنسان

الفصل الثاني
طرق ووسائل البحث في علم الإنسان

تقديم: مفاهيم أساسية.

يعتمد تقدّم أي علم من العلوم على وجود «منهج» محدد وواضح المعالم للبحث يساعد في التوصل إلى معرفة منظمة بجوانب الواقع، بحيث يعتمد الدارسين على هذه المعارف لبناء النظريات العلمية أو نقدها وإعادة تقييمها أو إضافة عناصر جديدة لتأتي أكثر تكاملاً وشمولاً وأكثر ملائمة لتفسير الواقع الإنساني المتغير.

ومن المفيد أن نشير هنا في هذا التقديم إلى عدد من المفاهيم والمصطلحات الرئيسية، مثل البحث، والمنهج، النظرية، الأسلوب، والأداة التي يتكرّر استخدامها كثيراً في سياق الحديث عن أساليب ومنهاج البحث في علم الإنسان بخاصة والعلوم الاجتماعية بصورة عامة. وفيما يلي نقدّم تعريفات مبسطة مختصرة لهذه المفاهيم والمصطلحات:

البحث: research

هو العملية التي يتم من خلالها تقصي الوقائع بطريقة منظمة لتحقيق هدف من الأهداف.

المنهج: method

يعني لفظ المنهج في اللغة الطريق إلى هدف ما. وهذا يعني أنّ المنهج أسلوب لتنظيم النشاط الإنساني. وهو تعريف عام ينطبق على

أي نوع من المناهج علمية كانت أو غير علمية. أمّا «المنهج العلمي» فهو تعبير يشير إلىٰ «مجموعة من القواعد العامة التي تحدد الإجراءات العملية والعمليات العقلية التي تتبع من أجل الوصول إلىٰ الحقيقة فيما يتعلق بظاهرات الكون الطبيعية: الفيزيقية والبيولوجية والإنسانية» ولما كان العلم في حالة تطور مستمر فإنّ المنهج العلمي أيضاً يضاهيه في هذا التطور (سمير نعيم، ص ٢) والمنهج البحثي ضروري في أي مجال علمي، وتختلف قواعده باختلاف هذه المجالات. ولهذا فإننا نرىٰ أنّ لكل علم من العلوم الأساسية والاجتماعية والإنسانية مجموعة من النظريات ولكل منها أيضاً مجموعة من مناهج البحث وأساليبه وأدواته.

الأسلوب: approach

يستخدمها العالم في بحث ظاهرة ما، ولكل علم أساليبه الخاصة به، والتي تتفق مع طبيعة الظواهر التي يدرسها. كما أنّ كلّ ظاهرة قد يناسبها أسلوب معيّن لدراستها. فالبيولوجي مثلاً يستخدم أساليب بحث مختلفة عن تلك التي يلجأ إليها الباحث الاجتماعي.

الأداة: technique

يستخدم كل علم أدوات مناسبة للظاهرة التي يقوم بدراستها وملاحظتها. والأدوات جميعاً ليست سوىٰ مساعدات لأعضاء الحسّ لدىٰ الإنسان. فالميكروسكوب والترموميتر أدوات يستخدمها العلماء كمساعدات لحواسهم تساعدهم في إجراء الملاحظات الدقيقة للظاهرات التي يدرسونها. كما يستخدم العلماء في العلوم الاجتماعية أدوات مختلفة مثل المقابلة، والملاحظة بالمشاركة، والإحصاءات، ودراسة الحالة وتحليل الوثائق للحصول علىٰ ملاحظات دقيقة عن الظاهرات التي يقومون بدراستها.

النظرية: theory

هي عبارة عن «مجموعة من التكوينات الفرضية (المفاهيم)

المترابطة والتعريفات والقضايا التي تقدم وجهة نظر نسقيه عن الظواهر بتحديد العلاقات بين المتغيرات بهدف التفسير والتنبؤ بها (كير لنجر: انظر عبد الله سليمان ص ١٩٠).

وبالرغم من أنّ الإنسان هو الموضوع الأساسي للدراسة في كل العلوم الاجتماعية والإنسانية، إلا إنها لا تدرسه بصورة عامة مطلقة، إنما من زوايا معينة وجوانب مختلفة. وقد أدّىٰ تعدد الاهتمامات ومناهج وأساليب البحث الخاصة بكل علم من هذه العلوم إلىٰ إبراز أشكالها ودرجات متفاوتة من التمايز بين العلوم.

وإذا ما نظرنا إلىٰ تاريخ علم الإنسان والاتجاهات البحثية المختلفة التي ظهرت خلال هذا التاريخ سنرىٰ أنّ أهم ما يميز هذا العلم عن بقية العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرىٰ، هو اعتماده الأساسي علىٰ منهج «الدراسة الحقلية» (fieldwork).

ولتأتي إجابتنا علىٰ التساؤل: «كيف يجمع علماء الإنسان مادتهم العلمية؟» دقيقة ووافية، من المفيد أن نكرر هنا ـ كما أشرنا في الفصل الأول ـ بأنّ علم الإنسان هو علم يعترف بوحدة الإنسان، ويدرسه بصورة كلية شمولية، وبهذا فإنه يشتمل علىٰ عدّة مجالات أو تخصصات علمية واضحة متمايزة عن بعضها، ليس فقط في اهتماماتها وموضوعاتها العلمية، بل أيضاً في بعض طرقها وأساليبها البحثية، إلاّ أنّ هذا بالطبع لا ينفي في نهاية المطاف ترابطها وتكاملها كنسق معين من أنساق المعرفة العلمية. والمجالين الرئيسيين في علم الإنسان هما:

١ ـ الأنثروبولوجيا الطبيعية ٢ ـ الأنثروبولوجيا الثقافية/ الإجتماعية.

إنّ التنوع في المجالات والاهتمامات العلمية لعلم الإنسان قد انعكس بدوره علىٰ طبيعة وأساليب جمع المادة العلمية الخاصة بكل مجال، لذا نرىٰ أنّ المتخصصين في هذه المجالات الفرعية العديدة

التي تندرج تحت مظلتي هذين التخصصين الرئيسيين قد ابتكروا وطوروا خلال فترات تاريخية مختلفة أساليب وأدوات بحثية معينة تلائم أهداف وطبيعة موضوعات بحوثهم.

طرق البحث في علم الآثار والأنثروبولوجيا الطبيعية:

لا شك أنك قد قمت بزيارة إلىٰ متحف للآثار في الإمارات العربية المتحدة أو غيرها من البلدان وشاهدت تنوع وثراء مخلفات الثقافة المادية للإنسان، وربما أنك أيضاً قد زرت متحفاً من متاحف التاريخ الطبيعي التي تكثر اليوم في كل عواصم العالم ومدنه وشاهدت أجسام وهياكل الكائنات الحية المتنوعة الأحجام والأشكال. وربما شاهدت كذلك هياكل أو بقايا عظمية متحجرة للإنسان القديم وأدواته المادية وهي معروضة بدقّة وعناية وبجانبها الشروح والتفسيرات الدالة. ولعله قد خطر في ذهنك عندئذٍ تساؤلات حول كيف يجمع العلماء في هذين المجالين العلميين هذه المادة المعروضة في المتاحف أو غيرها من الأماكن ولماذا؟ وقبل أن نصف عملية جمع المادة المعروضة في المتاحف أو غيرها من الأماكن ولماذا؟ وقبل أن نصف عملية جمع المادة علينا أن نشير إلىٰ الأهداف العلمية العامة لكل من علم الآثار والأنثروبولوجيا الطبيعية إذ إنّ كل من هذه الأهداف يحدد طبيعة الأساليب والطرق البحثية الملائمة لكل مجال.

علم الآثار (الأركيولوجيا) archeology(*):

١ ـ يقوم هذا العلم بدراسة المخلفات المادية التي تساعد علىٰ

(*) أخذت مادة هذا الجزء بطرق البحث في علم الآثار والأنثروبولوجيا الطبيعية من فصل يحمل العنوان في كتاب «مدخل إلىٰ مناهج البحث في علم الإنسان» (الأنثروبولوجيا) تأليف: فتحية محمد إبراهيم ومصطفىٰ حمدي الشنواني: (الصفحات: ٢٩١ ـ ٣٠٠) ١٩٨٨، دار المريخ للنشر ـ الرياض وقد تمّ اختيار بعض الفقرات من هذه الصفحات واختصارها لتأتي ملائمة مع مستوىٰ المادة العلمية.

وصف وتفسير تطور الثقافات الإنسانية.

٢ ـ يقوم عالم الآثار بدور المؤرخ بين علماء الإنسان، إذ يحاول إعاد بناء الوقائع كما حدثت في الماضي.

٣ ـ يختلف عالم الآثار عن المؤرخ في أنّ الأخير يهتم فقط بالتاريخ المكتوب منذ عدة آلاف السنين، أما عالم الآثار فيرجع بدراسته إلىٰ مئات آلاف وأحياناً عدة ملايين من السنين لمتابعة نمو الثقافة الإنسانية قبل التوصل إلىٰ معرفة الكتابة واستخدامها.

٤ ـ يعتمد عالم الآثار علىٰ الأشياء التي تركها الإنسان القديم في تجميع الشواهد التي توضح كيفية نمو الثقافات القديمة وانتشارها.

الأنثروبولوجيا الطبيعية physical anthropology

تهتم الأنثروبولوجيا الطبيعية (أو الفيزيقية) بدراسة الإنسان ككائن بيولوجي، ولها مجالات رئيسية يعني بها علماؤها كدراسة: ١ ـ التطور البشري human evolution من خلال تحليل الحفريات. ٢ ـ ملاحظة سلوك الرئيسيات المختلفة. ٣ ـ دراسة التباين بين الجماعات البشرية human diversity.

إنّ علم الآثار والأنثروبولوجيا الطبيعية هما فرعا علم الإنسان اللذان يهتمان بصفة خاصة بماضي الإنسان، ويوجد في مجال علم الآثار:

١ ـ علماء تخصصوا في الكشف عن ماضي الثقافات ذات التاريخ المكتوب.

٢ ـ وآخرون تخصصوا في الكشف عن ثقافات ما قبل التاريخ (علماء آثار ما قبل التاريخ) Pre - historic archeology التي تشكل

حسب أراء العلماء، أكثر من ٩٩ ٪ من تاريخ الثقافة الإنسانية على الأرض.

مصادر المعلومات:

مثلما يهتمّ علماء الآثار بالعثور على الأشياء التي صنعها الإنسان القديم كالأدوات الحجرية والفخارية أو أماكن السكنى أو إيقاد النار أو غير ذلك، فإن علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية يهتمون بالعثور على الحفريات التي تكشف عن التطورات السابقة للإنسان عبر مختلف العصور، فهذه الأشياء المصنوعة التي خلفها الإنسان القديم وكذلك الحفريات تمثل إذن المادة الخام التي يستخدمها العلماء في دراساتهم لإعادة بناء ماضي الإنسان وتاريخه الثقافي، ولهذا فهم يهتمون بتطوير الأساليب البحثية التي تساعدهم على تحديد المواقع التي يمارسوا فيها أعمال التنقيب، وعلى اتخاذ أفضل الوسائل للكشف عن الشواهد التي يبحثون عنها وتحديد تواريخها.

أما على مستوى الخطوات الإجرائية للحصول على المعلومات. فيمثل تحديد الموقع الذي تجرى فيه عملية التنقيب نقطة البدء في الحصول على المعلومات. والمواقع الأثرية إما أن تكون واضحة للعيان كما هو الحال في الحضارة المصرية القديمة أو غيرها من البلدان أو تكون غير ظاهرة، وتبدو فيها مخلفات العصور القديمة في صور تلال أو أكوام كبيرة من الركام أو ما شابه ذلك. وهذه تحتاج إلى: تنقيب، أو يتمّ الكشف عنها بطريق الصدفة مثلاً أثناء الحفر لمد خطوط السكك الحديدية أو الأنابيب أو المناجم أو غير ذلك. كما يستدل عليها عندما تكون مطمورة تحت الحقول بملاحظة أن النباتات التي تنمو فوقها تكون مختلفة في بعض خصائصها عن النباتات المحيطة بها، ويمكن الاستعانة في ذلك أيضاً بالتحليل الكيميائي للتربة للكشف عن عنصر الفوسفور الذي يدل على وجود العظام وبعض المواد العضوية الأخرى.

ويلجأ بعض الباحثين إلى الاستعانة بالطائرات في ملاحظة مثل هذه الأماكن لأنها تحصي محيطاً أوسع للملاحظة. وقد يستدل عليها من خلال قطع الفخار المتناثرة. وتساعد هذه الطرق وغيرها على الكشف عن المواقع التي كان يعيش فيها السكان القدامى أو يذبحون فيها حيواناتهم أو يصنعون فيها أدواتهم ووسائلهم الإنتاجية أو يدفنون فيها موتاهم أو يقومون طقوسهم وشعائرهم.

الباحث الأركيولوجي:

إنّ الباحث الأركيولوجي يبحث عن الأشياء التي صنعها وخلفها سكان الموقع، وكذلك كل البيانات التي يستطيع استخلاصها عن حياتهم وعلاقاتهم بالبيئة المحيطة بهم، وأما الباحث الأنثروبولوجي الطبيعي فهو الطبيعي فهو يبحث عن السمات الفيزيقية الطبيعة للهياكل والبقايا العظمية لهؤلاء السكان. إذن الباحث الأركيولوجي يستطيع أن يركب صورة تقديرية لحياة الإنسان القديم من خلال دراسته للأشياء والمعالم التي يتمّ العثور عليها في مواقع التنقيب. ولهذا فهو يحرص في موقع الحفر أن يتعرف على كل التفاصيل الدقيقة لكل هذه الأشياء والمعالم، إذ لكل منها أهمية بالنسبة له، فعلى سبيل المثال:

- موقع المعيشة مثلاً يعطيه مؤشرات وصورة عن حجم السكان الذين كانوا يقيمون فيه من خلال شكل المكان ومساحته.

- ويقدّم مكان الدفن مؤشرات تقريبية عن هذا الحجم أيضاً، كما يمكن معرفة نوع الحياة التي كانوا يعيشونها من حيث الصيد والالتقاط أو الزراعة من خلال فحص العظام والمخلفات النباتية.

- كما أنّ انطباع أشكال الحبوب والنباتات وآثار الحيوانات على الطين، ثم تحولها إلى حفريات بعد ذلك يمكن أن يكون دليلاً لا يقل قيمة عن الأشياء الأصلية ذاتها.

بزيادة تدريجية في حجم المخ وسعة الجمجمة، وكذلك تفيد عظام الأطراف والحوض والعمود الفقري في استنتاج معلومات حول تطور التحرك والسير عند الإنسان، أو غيره من الكائنات الأخرىٰ.

- وفي حين يهتم بعض علماء الإنسان الطبيعيين بالحفريات، فإنّ البعض الآخر يهتم بالاختلافات البيولوجية بين الجماعات البشرية الحالية، ويدركون أنّ لهذه الاختلافات أسساً نشوئية وبيئية أدت دورها منذ عصور بعيدة وما زالت تؤديه حتىٰ وقتنا الحاضر. وهم يسعون لدراستها من خلال فحص الخصائص التشريحية للأجسام والأعضاء والأنسجة، وكذلك المقارنة بين الاستجابات الفسيولوجية للجماعات المختلفة، كما في حالات التعرض للحرارة أو البرودة الشديدة أو سرعة التنفس تحت ظروف معينة، وقد أطلق العلماء الذين ركزوا اهتمامهم علىٰ دراسة التباين الحالي بين الجماعات البشرية في الخصائص التشريحية والفسيولوجية علىٰ تخصصهم اسم «الأنثروبولوجيا البيولوجية».

Louis Seymore Bazett Leakey (1903 - 1972) British paleontologist, Leakey along with his wife and colleague Mary Leakey, was responsible for some of the most important fossil finds in the hominid line. At Olduvai Gorge in Tanzania the Leakevs found the skull of a hominid which was dated as being what was then an incredible 1.75 million years old. With this and other subsequent finds the Leakeys constantly forced revoluation of current theories of human evoluation. Their son Richard Leakey continues to do so.

كما يمكن أن يستنتج عالم الآثار بعض الأفكار والتصورات عن أشكال التنظيم أو التفاوت الاجتماعي للسكان من خلال التشخيص الدقيق لبعض المؤشرات المادية التي يمكن أن يعثر عليها.

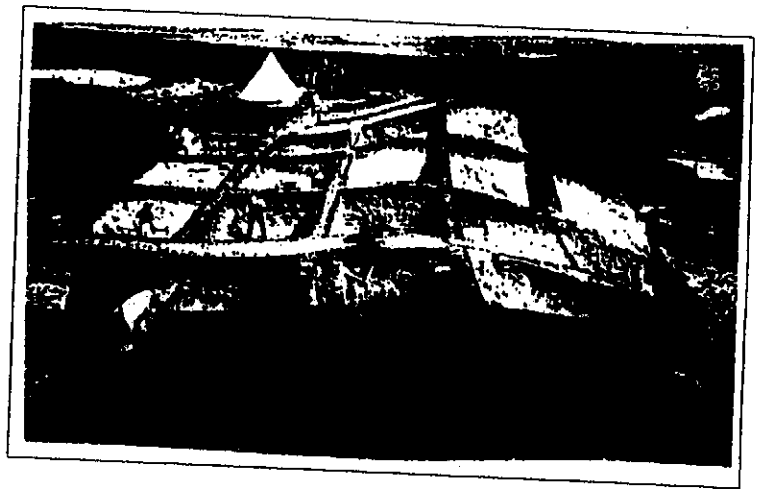

(موقع تنقيب أركيولوجي).

باحث الأنثروبولوجيا الطبيعية:

- يهتم بصفة خاصة بالبقايا العظمية التي يتمّ العثور عليها والتي تمثل المراحل المختلفة لتطور الإنسان كالأسنان وعظام الفك والجماجم والعظام الأخرىٰ بالجسم.

- وعلىٰ الرغم من أنّ الأسنان تتعرض للنخر لدىٰ الإنسان وهو حي إلا إنها من أكثر أجزاء الجسم البشري قدرة علىٰ الاستمرار بعد موته حتىٰ إنها تشكل أحياناً المصدر الوحيد لبعض الدراسات وتعتبر الأسنان مصدراً جيداً للمعلومات الخاصة بحجم الكائن الحي ونوع تغذيته.

- كما تساعد الجمجمة علىٰ التعرف علىٰ حجم المخ وشكله وطريقة ارتباطه بالحبل الشوكي. وقد أوضحت الدراسة المقارنة للجماجم المختلفة التي عثر عليها أنّ التطور البشري كان مصحوباً

ما هي الحفريات؟ (fossils)

يقصد بكلمة حفرية أو أحفوره fossil كل ما يحفر عليه في صخور القشرة الأرضية من بقايا وآثار الحياة السابقة نباتية كانت أم حيوانية «ويبدأ تكون الحفرية عندما تتلاشىٰ الأجزاء العضوية سريعة الاختلال من العظمة مثلاً وتترسب عليها العناصر المعدنية التي تترسب إليها التربة خلال فترة طويلة من الزمن وتتخلل المسام الموجودة بها، ولهذا يجدها العلماء أثقل من العظام العادية، أو تتحول العظمة إلىٰ حفرية بفعل التغيرات الكيميائية التي تحدث في المواد غير العضوية فيها، أو عندما تتلاشىٰ العظمة بكاملها مخلفة وراءها قالباً تملأه بعد ذلك العناصر المعدنية الموجودة في التربة. ويمكن اعتبار الآثار المطبوعة علىٰ الطبقات الرسوبية للنباتات وآثار أقدام الحيوانات والإنسان القديم من الحفريات أيضاً، وتوجد في بعض المتاحف نماذج لآثار أقدام الديناصور الذي عاش علىٰ الأرض منذ ملايين السنين.

ومن الأماكن الرئيسية التي يتجه إليها العلماء في بحثهم عن الحفريات الكهوف ووديان الأنهار والبحيرات، فقد لجأ الإنسان القديم إلىٰ الكهوف لحماية نفسه من الحيوانات المفترسة والتقلبات الجوية العنيفة، كما عاش حول الأنهار والبحيرات وطمرت آثاره في طبقاتها الرسوبية. وقد عثر علىٰ إنسان بكين في أحد كهوف الصين، كما عثر علىٰ بعض النقوش والرسوم التي صنعها الإنسان القديم علىٰ جدران الكهوف في فرنسا وإسبانيا، وعلىٰ كثير من الحفريات الآدمية في المواقع التي كانت بحيرات وأنهاراً في العصور القديمة في كينيا وتنزانيا.

ما الذي يحاول العلماء الكشف عنه؟

عندما يعثر العلماء علىٰ بعض الحفريات من العظام المتنوعة فإنهم يحاولون الكشف عن ناحيتين هامتين:

١ ـ محاولة التعرف علىٰ عمر الحفرية أي الزمن التقريبي الذي

عاش فيه الكائن الحي الأصلي، وتوجد عدّة طرق يستخدمها العلماء لهذا الغرض من أهمها: طريقة الكربون ١٤ المشع (Cl4)، وطريقة التأريخ النسبي relative dating، وطريقة فحص القطاعات العرضية للأشجار، وطريقة تحليل دقائق الرسوبيات الحولية، وطريقة قياس نسب الفلورين، وطريقة البوتاسيوم ـ أرجون.

٢ ـ محاولة التعرف علىٰ نوع الحفرية، وما إذا كانت تنتمي لحيوان أو إنسان، وما إذا كانت لذكر أو أنثىٰ، وما إذا كانت لإنسان حديث أو قديم. وبالإضافة لطرق تحديد تواريخ الحفريات تساعد الدراسة الأنثروبومترية anthropometry علىٰ توضيح الفروق الدقيقة بين الإنسان والحيوان وأيضاً بين الذكور والإناث، فهناك عدد من المعاملات indicies القياسية التي تساعد علىٰ معرفة نوع الحفرية كمعاملات الرأس واللوح والفخذ مثلاً.

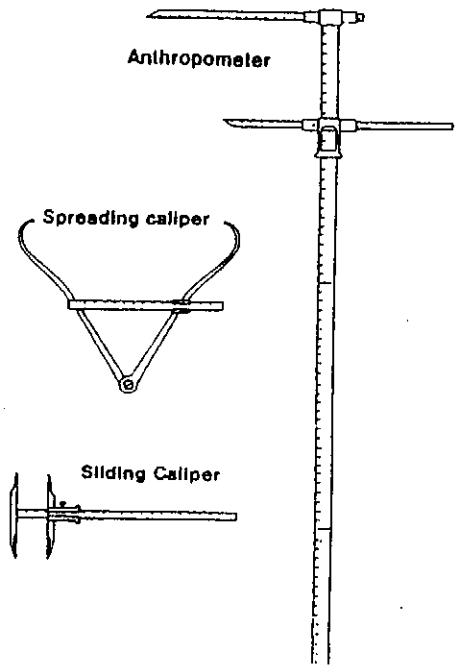

anthropometric equipment.

ما هي الأنثروبومتري؟:

(علم القياس-البشري) وهي عبارة عن طريقة أو وسيلة علمية يستخدمها علماء الإنسان الطبيعيون لدراسة خصائص الإنسان الجسمانية بطريقة إحصائية كمية، وتستخدم لقياس مختلف الملامح الجسمانية الخارجية لبني البشر، وكذلك في دراسة الخصائص السلالية (كشكل الرأس، والجمجمة، وطول القامة، وشكل الوجه، والأنف، والعين) التي تتميز بها أجناس وسلالات الإنسان الحالية والمنقرضة.

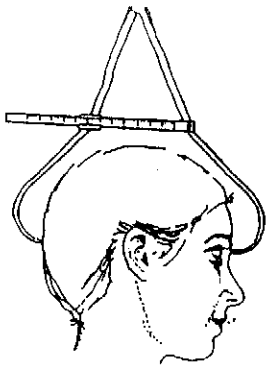

Head length

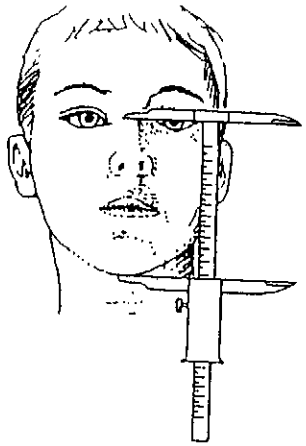

Facial height measurement

أدوات قياس أنثروبومترية

ما هي البايومتري؟: البايومتري **biometry** (طريقة القياس العضوي أو الحيوي) لا تدرس الأنثروبولوجيا الطبيعية في الوقت الحاضر فقط السمات الخارجية للسلالات البشرية، بل هي تبحث في المظاهر الداخلية للجسم، كالنبض، وسرعة ومعدل النمو، ونسبة الأملاح والسكر في الدم، والغدد ووظائفها، وفصائل الدم وتوزيعها. وتعتمد في ذلك على مقارنات تعقدها في ضوء علم وظائف الأعضاء المقارن، وذلك باستخدام البايومتري أي طريقة القياس العضوي، ويعتبر هذا الفرع من فروع البحث في الأنثروبولوجيا الطبيعية حديث نسبياً، فهو يرجع إلى ثلاثينات هذا القرن، حيث كان العلماء في القرن التاسع عشر يقتصرون في دراستهم للسلالات البشرية والفوارق بينها على بحث المظاهر الجسمية الخارجية فقط. ولقد تقدّم القياس العضوي تقدّماً واضحاً منذ الحرب العالمية الثانية، وتقدّمت مناهج بحثه حديثاً في دراسة فصائل الدم والأملاح والخصائص الجنسية للسلالات، مما سيكون له أثره الواضح في فهم التنوعات والاختلافات التركيبية بين السلالات البشرية، وتحليل ديناميات علم الوراثة السكانية.

الدراسة الحقلية: طريقة الأنثروبولوجيون الثقافيون والاجتماعيون لفهم الثقافات والشعوب.

تعريف الدراسة الحقلية:

«هي دراسة الناس وثقافتهم في مكان إقامتهم الطبيعي. وقد تميزت الدراسة الحقلية الأنثروبولوجية بإقامة الباحث لفترة طويلة في المجتمع موضوع الدراسة، وملاحظة سلوك أعضائه ومشاركتهم مختلف نواحي نشاطهم ومحاولة فهم وجهة نظرهم الخاصة وتحقيق النظرية الكلية الشاملة التي يعتنقها المتخصص في العلوم الاجتماعية» (باودر ماكر ص ١٤٣).

المبادىء التي تعتمد عليها الدراسة الحقلية:

يشير الأنثروبولوجيين الأمريكيين روبرت أدجرتن ولويس لانجنس في كتابهما «طرق البحث وأساليب دراسة الثقافة» أنّ الدراسة الحقلية مبنية على عدد من المبادىء أو المنطلقات الأساسية التي غالباً ما تبدو لنا كأمور مسلم بها ومتضمنه في كتابات الأنثروبولوجيين. وهذه المبادىء هي:

١ ـ **أول هذه المبادىء**: الاعتقاد بأنّ أفضل أداة لدراسة الثقافات الغريبة علينا وفهمها هي فكر الإنسان ومشاعره وعواطفه. والإنسان هو المخلوق الذي هيأ بصورة مثلى ليفهم أبناء نوعه ويفهم رموز الحياة الثقافية ومعانيها. وبالرغم من استخدام الاختبارات والاستمارات الإحصائية التي يتمّ إجرائها على أعضاء ثقافة أخرى قد تمد الباحث بقدر كبير من المعلومات إلا إنه إذا ما أردنا تفسير هذه الإجابات وفهم ما يكمن خلفها يجب أن يهيأ شخص ما ليقوم بهذا، أي تفسير الرموز الثقافية المعقدة. ويرى الأنثروبولوجيون أنّ القيام بدور «الملاحظ بالمشاركة» يمكنهم من تحقيق هذا الهدف.

٢ ـ **أما المبدأ الثاني**: فيرتبط بالفكرة المتضمنة في المبدأ الأول ويشير إلى الاعتقاد بوجوب أن ننظر إلى ثقافة مجتمع ما من خلال منظور أهلها مضافاً لهذا منظور الملاحظ العلمي. وتتضح أهمية هذا المبدأ إذا ما قبلنا بضرورة تجنب الباحث الغربي، أو غيره، بتسليط

مقاييس الفكر والآراء الخاصة بثقافته هو على الثقافات الأخرى. وأنه يجب أن يتمّ فهم حياة الناس كما يفهمها أصحابها أنفسهم وليس كما يحلو لنا نحن الغرباء فهمها أو تصورها. لذا تتطلب رؤية الحياة الثقافية كما يراها أهلها الآخرون منا المشاركة مع هذا الآخر والاندماج معه والإحساس بعوالمه وتجاربه الإنسانية.

٣ ـ أما المبدأ الثالث: فيسمى «بالمنظور الكلي التكاملي» (holism) ومفاده أنه يجب أن ننظر أو ندرس ثقافة مجتمع ما على أنها كل متكامل ومترابط، ويجب أن لا ينظر إلى أشكال السلوك الثقافي على أنها أجزاء منفصلة ومتناثرة عن إطارها الذي تقع داخله. ولهذا فإنّ الدراسة الحقلية تدفع الباحث مثلاً لا ليدرس الدين فقط أو الاقتصاد أو تنشئة الأطفال وتدريبهم إنما ليدرس أوجه وعلاقات الترابط بين كل هذه الأمور والمناشط الأخرى للحياة الإنسانية التي تشكل كلّ ثقافي واحد. وترتكز فكرة المبدأ التكاملي إلى حد ما على التزام الأنثروبولوجي ليقدم لنا تفسير طبيعي للسلوك الإنساني. والمقصود بفكرة «الطبيعي» هو أن ننظر إلى السلوك الإنساني في الإطار الذي يحدث فيه هذا السلوك بصورة طبيعية، أي جزء من حياة مستمرة لمجتمع ما بدلاً من أن يكون جزءاً خاصاً لتجربة في المختبر.

لماذا الدراسة الحقلية؟

اتصفت البدايات الأولى للأنثروبولوجيا بسيادة التصورات والآراء حول المساق التطوري المفترض للثقافة الإنسانية، والأسباب التي أدت إلى ظهور الاختلافات بين المجتمعات. وقد تمّ رواج مثل هذه الأفكار من خلال الدراسة والتنظير المكتبي إذ إنّ قلّة من المنظرين تسنّى لهم آنذاك معرفة أولية مباشرة لشعوب أخرى غير شعوبهم مما دفع بالعلماء في تلك الفترة ليعتمدوا على كتابات وتقارير الرحالة والصحفيين والمبشرين. وبالرغم من أن هذه الكتابات مثلت منطلقات أولية للتعرف على الثقافات والشعوب إلا إنها غالباً ما اتصفت بالتحيّز أو التبسيط وتشويه الواقع. ولهذا سرعان ما تبيّن إنه إذا ما أرادت الأنثروبولوجيا أن تُبنى على أسس نظرية صلبة فإنّ العلماء بحاجة إلى أن يحصلوا على وصف دقيق وكامل للثقافات في كل جزء من أجزاء العالم. وبهذا فقد ظهر الاعتماد على الدراسة الحقلية لتحقيق هذا الهدف الطموح، وحتى يتمكن رواد الأنثروبولوجيا الأوائل من ترسيخ علمهم على أسس ومنطلقات مبنية على الواقع الثقافي لتجارب بني الإنسان أيّاً كانوا.

لمحة تاريخية:

يرى علماء الإنسان أنّ من أهم أهداف الدراسات الحقلية هو الحصول على دراسات أثنوجرافية للشعوب والثقافات المختلفة. والأثنوجرافيا هي عبارة عن تسجيل وصفي دقيق للشعوب أو الثقافات الإنسانية وهي غير تفسيرية في المقام الأول. ونشأت الأثنوجرافيا من خلال كتابات الرحالة القدامى الذين كانوا يسجلون كل ما يشاهدون عن الجماعات المختلفة أو المتخلفة حضارياً، وإليهم يرجع الفضل في تحقيق البدايات المبكرة للدراسات الأثنوجرافية.

ومن هذا المنطلق نرى أنّ الدراسات الأثنوجرافية بهذا المعنى العام لم تنشأ لدى المفكرين الأوروبيين في العصر الحديث، كما يرى بعض الأنثروبولوجين، إنما تمتد بجذورها التاريخية إلى المؤرخين اليونانين مثل هيرودتس والرحالة الأوروبيين في عصر النهضة وكذلك فهي تمتد بجذورها إلى العلماء والرحالة المسلمين العرب أمثال المسعودي والمقدسي والإدريسي وابن حوقل وابن فضلان وابن بطوطة وابن خلدون. فقد كان لهؤلاء الرحالة والمفكرين العرب دور كبير في جمع المادة الأثنوجرافية (الوصفية) عن البلاد والممالك التي زاروها، وأقاموا فيها، وكتبوا عنها، ووصفوا عاداتها وتقاليدها وبيئاتها ومدنها وأنماط ثقافتها.

وكما يشير حسين فهيم في كتابه أدب الرحلات، فإننا مثلاً نجد من بين الرحالة العرب من اهتمّ بوصف الأقاليم وطبائع سكانها، ومنهم من أسهب في وصف العادات والتقاليد لأفراد الجماعات الدينية والأثنية

في الأماكن التي زارها أو أقام فيها، ومنهم من جمع بين الاثنين. ونجد في كتابات المقدسي، كمثال الرحالة الأثنوجرافي، في مؤلفه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) مزج واضح بين الرحلة والأثنوجرافيا، علاوة على ما فيه من تفاعل في شخصية هذا الرحالة بين الحسّ الأثنوجرافي والنزعة الأدبية في عرض المعلومات بطريقة سلسلة وشيّقة. ولا عجب أنّ المقدسي قد أعطى لنا في وصفه للأقاليم الكثير من طبائع البلاد وعادات سكانها ونظم حياتهم، إذ نراه يعبّر في مقدمة كتابه (أحسن التقاسيم) عن منهجه وطريقة جمعه للمادة فيقول:

«وما تمّ لي جمعه إلاّ بعد جولاتي في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقرّاء، وكتبة الحديث، ومخالطة الزهّاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصّاص والمذكّرين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كلّ أحد، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم والفراسخ حتى أتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حرّرتها، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها..».

(مقتبس من كتاب حسين فهيم ص ٦٤)

توضح لنا طريقة المقدسي وأساليبه هذه أهمية الرحلة والتجوال في تقصي المعارف وجمع المادة حول طبائع الشعوب وعاداتها. وبهذا نرى أنه يؤكد ضرورة المعاينة الشخصية عن طريق ملاحظة أحوال النّاس، كلّ النّاس الخاصة منهم والعامة، والاختلاط بهم ومعايشتهم.

بعض البدايات المبكرة للدراسة الحقلية خلال أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين:

ونشير هنا بإيجاز لبعض الدراسات الحقلية التي يعتبرها علماء الإنسان معالم بارزة في تاريخ نشأة الأنثروبولوجيا كعلم مستقل باهتماماته وترسيخ طرق بحثه المتميزة.

*** دراسة فرانز بواس عن الأسكيمو في جزيرة بافن عام ١٨٨٣:**

يشار إلى فرانز بواس الذي يعرف عادة بالأب المؤسس

للأنثروبولوجيا الحديثة على أنه هو الذي بدأ طريقة البحث التي تمّ ترسيخها في السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر تحت اسم «الدراسة الحقلية». وقد قام بواس بدراسته الحقلية الأولى بين الأسكيمو في جزيرة البافن عام ١٨٨٣. وبالرغم من أنّ التأهيل الذي تلقاه بواس كان في الفيزياء والجغرافيا إلا أنه لم يستخدم أية أدوات علمية أو تجارب في محاولته لفهم ثقافة الأسكيمو ووصفها. وكانت الأداة الوحيدة التي احتاج إليها ذات طابع إنساني حيث مكنته ليقوم بتحليل رموز أنماط ثقافة الأسكيمو، ويتعرف على الأبعاد الإنسانية العميقة التي تجمع بين كل البشر.

ونشر بواس في عام ١٨٨٨ دراسته عن الأسكيمو في كتاب بعنوان The Central Eskimos (أسكيمو المناطق الوسطى) وبدأ منه اهتمامه بالجوانب المميزة لثقافة الأسكيمو من حيث توزيع القبائل وأساليب الصيد، وبناء المساكن، والانتقال والتجارة والأدوات التكنولوجية، وكذلك حياتهم الاجتماعية والدينية. ويشير بواس أنه قام قبل رحلته إلى بافينلاند بدراسة المؤلفات التي كتبت عن المنطقة، ولغة الأهالي ليتحدث معهم دون مترجم. وكتب أيضاً عن زياراته للمستوطنات المتعدّدة في منطقة بحثه، واختلاطه مع الأهالي، ووصف الصعاب والمشاكل العملية التي كانت تواجهه أثناء القيام بالدراسة.

وظهر في السنوات التالية لتجربة بواس الميدانية كثيراً من المنطلقات والمفاهيم الهامة حول طبيعة الإنسان وطبيعة الثقافة، وكانت كلها نتاج فكري مبني على الدراسات الحقلية، إذ شكلت هذه الدراسات الأساس الذي بنيت عليه الأنثروبولوجيا الثقافية الحديثة.

*** بعثة جامعة كمبردج إلى مضايق توريس (١٨٩٨ ـ ١٨٩٩):**

تمت بوحي من جيمس فريزر وبتمويل من جامعة كمبردج خلال عامي ١٨٩٨ و ١٨٩٩ وتوزعت بين الجزر الشرقية والجزر

الغربية من المضيق في المحيط الهادي. وقد رأسها الفرد هادون A. Haddon (١٨٥٥ ـ ١٩٤٠) الذي كان متخصصاً في علم الحيوان، الذي ذكر أنّ هدف الرحلة هو «ملاحظة أحد الشعوب في مرحلة دنيا من الثقافة في ظروف حياته العادية» (إبراهيم والشنواني: ١٩٨٨: ٦٧). وتنوعت بحوث أعضاء الرحلة مع تنوع تخصصاتهم ونشرت نتائج هذه البحوث في مجلدات خلال الفترة من ١٩٠١ وحتىٰ ١٩٣٥. وعالجت هذه المؤلفات موضوعات وجوانب عديدة كالجوانب الفسيولوجية والسيكولوجية، والقرابة والزواج، والدين والسحر (الطوطمية) والعادات الخاصة بالولادة والطفولة والبلوغ عند الإناث والتجارة والحروب. ويشير العلماء إلىٰ أنّ هذه الرحلة مثلت علامة مميزة في تشكيل الأنثروبولوجيا كعلم يحتاج إلىٰ التخصيص والتفرغ ويعتمد علىٰ الخبرة الحقلية باعتبارها عنصراً جوهرياً في تدريب الطلاب والدارسين لهذا العلم.

دارسة مالينوفسكي (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وترسيخ الدراسة الحقلية:

تعتبر تجربة برونسلو مالينوفسكي في الدراسة الحقلية من أهمّ التجارب التي أسهمت إسهاماً كبيراً في تدعيم البحث الحقلي في ميدان الأنثروبولوجيا. وقد كشف كتاب مالينوفسكي أرجو نوتس Argonauts of the Western Pacific الذي نشر المحيط الهادي الغربي عام ١٩٢٢ عن الإمكانيات الهائلة للدارسة الحقلية. فقد قام مالينوفسكي بدراسة لسكان جزر التروبرياند Trobriand في ميلانيزيا، حيث أمضىٰ فيها قرابة فترة أربع سنوات بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٨. وهذه تمثل فترة تطول كثيراً عن المدة التي أمضاها أي أنثروبولوجي في الدراسة الحقلية من قبل. وقد تمكن مالينوفسكي من وضع قواعد جديدة للدراسة الحقلية لا تزال متبعة حتىٰ اليوم. فهي تؤكد أنّ الدراسة الحقلية تعني إندماج الباحث في المجتمع الذي يقوم بدراسته اندماجاً يمكنه من أن يعرف بقدر الإمكان كيف يتحدث ويفكر ويشعر ويعمل كأحد أعضاء ثقافة ذلك المجتمع في الوقت

الذي يظل مدركاً فيه لدوره كأنثروبولوجي مدرب ينتمي إلىٰ ثقافة أخرىٰ.

وكان مالينوفسكي أول أنثربولوجي يستخدم لغة الأهالي أنفسهم بشكل فعال في إجراء البحث، وكذلك أول من عاش مع الأهالي وبطريقتهم الخاصة طيلة مدة الدراسة. وتكمن أهمية دراسات مالينوفسكي الحقلية إلىٰ أنها أكدت أنّ فهم الحياة الاجتماعية لدىٰ شعب من الشعوب (البدائية أو غيرها) لن يتحقّق إلا إذا درست دراسة مركزه. وكذلك آمن بأن القيام بدراسة حقلية مركزه واحدة علىٰ الأقل يؤلف جزءاً ضرورياً في تدريب الأنثروبولوجي. وقد عرف هذا التوجه البحثي فيما بعد «بتقليد مالينوفسكي» The Malinowskian tradition.

مقتطفات من وصف مالينوفسكي لدراسته الحقلية:

نقدم هنا مقتطفات لوصف مالينوفسكي لما رآه علىٰ أنه المنهج السليم للطريقة الأنثروبولوجية في البحث الميداني حيث يشير أولاً إلىٰ القواعد والأسس الرئيسية التي يجب مراعاتها عند إجراء الدراسة الحقلية، ثم يصف ثانياً بصورة مفصلة أسلوبه في جمع المادة الأثنوجرافية عن طريق الملاحظة بالمشاركة.

«يمكن تحديد الأسس الخاصة بهذه الطريقة الأنثروبولوجية تحت ثلاثة عناوين:

١ ـ من الطبيعي أن يكون لدىٰ الباحث أهداف علمية حقيقية وأن يكون علىٰ معرفة بفوائد ومقاييس الأثنوجرافيا الحديثة.

٢ ـ عليه أن يضع نفسه في أوضاع أو أحوال جيدة للقيام بالبحث الأثنوجرافي، أي أن يعيش وسط أبناء المجتمع المحلي بعيداً حيث لا يرىٰ أناس أوروبيين مثله.

٣ ـ عليه أن يطبق عدداً من الطرق الخاصة في استخدام وترتيب الأمثلة والشواهد» (ص ٦).

أما المقتطف التالي من وصف مالينوفسكي فيوضح ما يقصده عادة الأنثروبولوجيون بضرورة خلق الأحوال العملية الملائمة للدراسة الحقلية.

«هناك فرق كبير بين الأسلوب الذي يعتمد علىٰ الزيارات

المفاجئة المتقطعة إلىٰ حياة السكان الأصليين والأسلوب الذي يعتمد علىٰ الاتصال المستمر من خلال العيش بينهم. ما الذي نقصده بالأسلوب الثاني؟ فبالنسبة للأثنوجرافي (الباحث الميداني) فإن نمط حياته يبدو في المراحل الأولىٰ غريباً، وأحياناً غير مريحاً، ومرات أخرىٰ يبدو كمغامرة مثيرة؛ إلا إنه سرعان ما يأخذ وتيرة طبيعية تبدو أكثر تناسقاً بما يحيط به في عالمه الجديد.

وبعد أن استقرّ بي المقام في أوماراكا (في جزر التروبريان) سرعان ما بدأت أشارك في حياة القرية، وبدأت أترقب الأحداث والأعياد الهامة، وأهتم بالإشاعات ونمو الأحداث الصغيرة في القرية. وبدأت أستيقظ كل صباح حيث أبدأ حياتي اليومية كما يبدأها أبناء المجتمع المحلي. أنهض من تحب غطاء الناموس لأرىٰ القرية وقد بدأت تدبّ فيها حياة الصباح وأحياناً أستيقظ لأرىٰ الناس وقد انخرطوا في مناشطهم وأعمالهم اليومية حسب مقتضيات الوقت أو حركة الموسم، وتراهم يستيقظون ويبدأون أعمالهم إما في أوقات مبكرة أو متأخرة وفقاً لمتطلبات طبيعة العمل.

وصار بإمكاني كلما تجولت في القرية وقت الصباح مشاهدة تفاصيل دقيقة للحياة العائلية، كالغسل والطبخ والأكل. وصار بإمكاني رؤية الترتيبات التي يعدها الناس لإنجاز أعمال يومهم، وأرىٰ الناس وقد انطلقوا في غدوهم ورواحهم. وأشاهد مجموعات من الرجال والنساء وهم ينجزون بعض الأعمال الصناعية. وأصبحت المشاجرات والنكات ومشاهدة العائلات والأحداث اليومية البسيطة تمثل أموراً هامة مكونة المحيط أو المسرح لحياتي اليومية، ولحياتهم هم أيضاً.

ويجب أن نتذكر أنّ مشاهدة السكان المحليين لي كل يوم أفقدهم الاهتمام بي، ولم يعد وجودي بينهم مصدر إثارة أو تحفظ من قبلهم، ولم يعد عيشي بينهم مصدراً مشوشاً لحياتهم القبلية التي جئت لدراستها، حيث قد يكون مجرد اقترابي منهم سبباً في إثارة تغيرات في حياتهم كما يحدث غالباً عندما يأتي وافد جديد إلىٰ أي مجتمع بدائي.

وصار بإمكاني في نهاية اليوم مشاهدة كل شيء يمكن حدوثه بالقرب مني، ولم يعد ممكناً اختفاء أي شيء عن ملاحظاتي. وأصبحت الأحداث مثل قدوم العراف المشعوذ وقت المساء، أو حدوث شجار، أو خصام كبير في المجتمع وكذلك حالات المرضىٰ أو المعالجة الطبية، وأحداث الموت والشعائر السحرية التي كان ضرورياً إجراءها. كل هذه لم تستدعي خروجي للبحث عنها إذ كانت تتمّ علىٰ مقربة مني أمام عيني؛ أو كما يقال علىٰ عتبة باب داري. ويجب أن نؤكد هنا أنه في حالة وقوع أي حدث درامي، أو هام علىٰ الباحث تقصيه في نفس اللحظة عند حدوثه إذ نجد وقتها أنّ أبناء المجتمع المحلي يكونوا مدفوعين للحديث عنه. وإن الحديث حول الحدث يثيرهم لدرجة أنه لا يمكن أن يظلوا صامتين، لا بل نراهم مهتمين به، ولا يتكاسلوا في تقديم التفاصيل.

وكذلك فقد وقعت مرات متكررة بأخطاء تتعلق بالأصول والآداب الاجتماعية حيث لم يتقاعس ممن عرفوني جيداً من أبناء المجتمع بلفت انتباهي إليها. كان علي أن أتعلم كيف أتصرف واكتسب لدرجة ما إحساساً خاصاً بقواعد السلوك الحسنة ومعرفة السيئة في حياة أبناء المجتمع الأصلي، وبدأت باكتسابي لهذا الشعور وقدرتي للاستمتاع بصحبتهم والمشاركة في ألعابهم وتسلياتهم أشعر أنني فعلاً قد اندمجت مع السكان الأصليين. ومما لا شك فيه أنّ وصول الباحث إلىٰ مثل هذه المرحلة أو شعوره بمثل هذا الإحساس يمثل حالة أولية سابقة لتمكنه من إجراء الدراسة الحقلية بنجاح.

ولا يكفي الأثنوجرافي أن يلقي فقط بشباكه في المكان الصحيح وينتظر بعد ذلك ماذا سيقع بداخلها لا بل عليه أن يكون صياداً نشطاً يدفع بأنشطته البحثية باتجاه الشباك ويتتبعها حتىٰ يصل إلىٰ تلك الأماكن والمستويات التي تبدو بعيدة المنال» (ص ٧ ـ ٨).

ويضيف مالينوفسكي في مكان آخر:

«إنّ العيش في القرية حيث ليس للباحث أي نشاط غير متابعة

الحياة (الاجتماعية والثقافية) الخاصة بأبناء المجتمع الأصلي يوفر له مشاهدة العادات والاحتفالات والمبادلات مرات تلو المرات، الأمر الذي يتيح له الفرصة لمشاهدة معتقداتهم كما هي معاشة على أرض الواقع. ويأتي وصف الباحث للحم وشحم الحياة الواقعية للسكان الأصليين ليكسي الهيكل العظمي لتلك الصياغات النظرية المجردة التي تمّ وضعها لتحليل هذا المجتمع» (ص ١٠).

الملاحظة بالمشاركة participant - observation

يتضح لنا من قراءة هذه المقتطفات من وصف مالينوفسكي لتجربته الميدانية أن على الأنثروبولوجي الذي يعتمد على الملاحظة بالمشاركة لجمع مادته العلمية عن ثقافة مجتمع ما أن يعيش كعضو في ذلك المجتمع. بعبارة أخرى نرى أنه يشارك في مناشط الناس اليومية ويراقبهم عن قرب، ويبدأ تدريجياً يعيش حياتهم ويفهم معانيها كما يفهموها هم أنفسهم. مع هذا فإن الباحث - كملاحظ بالمشاركة - يظل دائماً منفصلاً عن حياة أهل المجتمع ولو بدرجة ما. وعلينا أن نتذكر أنّ الباحث الميداني لم يأتي أصلاً ليعيش بين أناس آخرين لمجرد الاستمتاع بحياتهم، وإنما جاء وجوده بينهم بهدف فهم طبيعة حياتهم ولينقل هذا (الفهم) إلى أناس آخرين ينتمون إلى ثقافات أخرى، وبالتالي فإن الاندماج الكلي الشامل لا يتفق مع الأهداف الأساسية للباحث الميداني، وكذلك فإنّ الانفصال أو الابتعاد الشامل عن حياة الناس موضوع الدراسة لا تتفق هي الأخرى مع متطلبات الدراسة الحقلية. إذن تتطلب الدراسة الحقلية الناجحة وجود تناسق بين هذين المطلبين، وهي في نهاية المطاف، عبارة عن جهد مستمر لإيجاد توازن بين موقفين متناقضين، ولعله يكمن هنا سر الصعوبة أو المشاكل الخاصة بطريقة الملاحظة بالمشاركة. وهناك أنواع أخرى للملاحظة، من أهمها:

١ ـ الملاحظة بدون مشاركة:

وهنا يجري الباحث ملاحظاته دون أن يشارك أو يتدخل في

أنشطة أفراد الجماعة أو المجتمع قيد الدراسة، ويهدف منها عادة إلغاء إمكانية تأثير الباحث على طبيعة الحياة وسير المناشط اليومية، وتستخدم هذه الطريقة من قبل كل العاملين في العلوم الاجتماعية بصورة ما أو أخرى.

٢ ـ الملاحظة المنتظمة أو المقننة:

وقد تكون هذه بالمشاركة أو بدون مشاركة، وهنا يضبط الباحث قدر الإمكان الأوقات والأماكن ونوع الأنشطة الاجتماعية التي يراد ملاحظتها والتحقق منها بصورة دقيقة. ويعتبر استخدام الملاحظة المنتظمة ذو أهمية خاصة في الدراسات الأنثروبولوجية المقارنة حيث تتم مقارنة محددة لبعض أنماط السلوك في عدد معين من المجتمعات.

فترة الدراسة الحقلية. لماذا تستغرق طويلاً؟

يقضي غالبية الأنثروبولوجيين في دراستهم الحقلية فترة زمنية لا تقلّ عادة عن السنة وقد يقضي بعضهم سنوات، ومنهم من يعود في زيارات لاحقه إلى المجتمع ذاته. ولنا أن نتساءل هنا لماذا تستغرق الدراسة الحقلية فترة زمنية طويلة؟ هناك عدة أسباب نحدد أهمها:

١ ـ ضرورة مشاهدة تنوع المناشط الاقتصادية والاجتماعية وهي تتغير وتتوالى عبر فصول السنة حتى يأتي الوصف الأنوجرافي كاملاً قدر الإمكان لكافة جوانب الحياة في المجتمع المحلي الذي اختاره الباحث.

٢ ـ إنّ طريقة الملاحظة بالمشاركة بطبيعتها تتطلب تكرار الملاحظات وتنوعها عبر وقائع وأحداث وفترات متباينة زمانياً.

٣ ـ ضرورة تعلم الباحث لغة المجتمع المحلية ولهجته في مستوى يأهله لإجراء المحادثة والمقابلات مع الناس، وهذا بالطبع يستغرق زمناً طويلاً.

٤ ـ تعرض الباحث الأنثروبولوجي في أحيان كثيرة لما يسمى

«بالصدمة الثقافية» عند دخوله للمجتمع الغريب لأول مرة. وقد يمر في حالات إحباط، أو الشعور بالكآبة والضيق بسبب الوحدة أو عدم قدرته لتحقيق إندماج سريع مع أبناء المجتمع، وتتطلب مثل هذه الأعراض والحالات النفسية التي يتعرض لها الباحث سعة من الوقت لمجابهتها أو تخطيها والتكيف معها بطرق تتلائم وأحوال المجتمع المحلي وظروف الدراسة بشكل عام.

٥ ـ سعي الباحث الدؤوب لبناء علاقات ثقة وتفاهم وتعاون مع أبناء المجتمع يتطلب بناء مثل هذه العلاقات الإنسانية والمحافظة عليها نسبياً مثابرة واستمرار عبر فترات زمنية طويلة نسبياً.

يهتم الباحث الأنثروبولوجي بتحقيق علاقات شخصانية وحميمة مع أبناء المجتمع الذي يدرسه. نرىٰ هنا بعض القبليين في غينيا الجديدة فرحين برؤية صورهم التي يقدمها لهم الأنثروبولوجي.

Establishing rapport, Tribesmen in Papua - New Gumea are pleased with this anthropologist's novel gift - Polaroid photos of themselves. (Barbara Kirk\Peter Arnold)

أساليب وأدوات أخرىٰ في البحث الميداني:

إنّ التركيز علىٰ طريقة جمع المادة الأثنوجرافية من خلال الملاحظة بالمشاركة قد تمّت صياغتها بداية أو أصلاً لتتلائم مع دراسة المجتمعات القبلية الصغيرة المتجانسة والمعزولة نسبياً حيث يصعب فيها علىٰ الباحث تجنب العلاقات المباشرة بالناس ـ علاقات الوجه بالوجه. إلا إن تنوع المجتمعات التي يدرسها الأنثروبولوجيون قد اتسع كثيراً خلال العقود الأخيرة لتشتمل علىٰ نماذج مجتمعيه وثقافيه مختلفة بأحجامها ومستويات تنظيمها وتركيبها. وقد ترتب علىٰ ذلك ظهور مشكلات بحثية جديدة وطرق وأدوات جديدة وإن ظلت بعض المناهج والمشكلات البحثية كما هي عليه مع بعض التغيرات الطفيفة.

وتعتبر هذه الأساليب مكملة لطريقة الملاحظة بالمشاركة التي تظل دائماً المرتكز الأساسي، أو العمود الفقري للدراسة الحقلية الأنثروبولوجية. وغالباً يتمّ إجراء بعض هذه الطرق أثناء الدراسة الحقلية. وأهم هذه الأساليب والأدوات البحثية التي يلجأ الأنثروبولوجيون إليها تبعاً لمتطلبات موضوعاتهم البحثية هي:

١ ـ أخذ البيانات والمسوح الإحصائية.

٢ ـ المعلومات الخاصة بعلاقات النسب والقرابة (الطريقة الجينيالوجيه).

٣ ـ المقابلات بأنواعها.

٤ ـ سيرة الحياة.

٥ ـ دراسة الحالة.

٦ ـ أساليب بحثية متخصصة.

١ ـ البيانات والمسوح الإحصائية:

علىٰ الباحث أن يقوم بأخذ بيانات إحصائية حول المجتمع الذي اختار دراسته. وتشتمل مثل هذه الأحصائيات علىٰ عدد السكان،

وعدد البيوت أو العائلات، ومعدل حجم العائلة، والنسب العمرية للسكان وأخذ بيانات ولو تقريبية بقطعان الحيوانات التي يمتلكها أعضاء المجتمع أو بيانات خاصة بأحجام ملكية الأراضي وما إلىٰ ذلك من معلومات تعطي القارىء فكرة واقعية عن المجتمع موضوع الدراسة. ويعتبر إجراء المسوح الإحصائية وتسجيل البيانات أسلوباً استخدمه الباحثون الأنثروبولوجيون في الماضي ولا يزالون يستخدمونه في الوقت الحاضر.

٢ ـ جمع المعلومات الخاصة بعلاقات النسب والقرابة:

ابتكر الأنثروبولوجيون أشكالاً رمزية وخطوط رسم توضيحية (جينيالوجيه) يستخدموها عادة لتوثيق علاقات النسب geneologies وتحديدها بشكل دقيق. وتتطلب عملية التوثيق هذه إجراء المقابلات مع أفراد المجتمع وخاصة كبار السن لمعرفتهم وخبرتهم بمثل هذه الموضوعات.

تمثل العلاقات القرابية والقيم المصاحبة لها نظاماً إيديولوجيا عاماً يؤثر بأشكال مترابطة ومتداخلة في جوانب كثيرة في حياة الأفراد والجماعات في المجتمعات القبلية عامة والمجتمعات البسيطة أو البدائية بصورة خاصة؛ وبما إنّ هذه العلاقات تؤثر بدرجة كبيرة في مسائل الزواج والمصاهرة وأشكال التكاتف السياسي وتنوعه وعمليات الإنتاج والتبادل وغير ذلك من المناشط الاجتماعية فإن الأنثروبولوجي يجد نفسه ملزماً للتعرف علىٰ هوية الجماعات القرابية وتحديد أصول هذه الجماعات وفروعها، وربما كذلك معرفة الأحداث التاريخية المحلية التي تكون قد أثرت في حجم هذه الجماعات وهجرتها، حتىٰ يتسنىٰ له في نهاية المطاف أن يقدم صورة تحليله موضوعية ومكتملة بجوانبها وأبعادها المختلفة.

٣ ـ المقابلات: interviews

يجري الباحث الميداني عادة المقابلات مع أفراد المجتمع الذي يدرسه ليحصل علىٰ معلومات معينة حول بعض الأحداث أو أنماط السلوك المختلفة، أو للتعرف علىٰ أنماط التفكير ونظرة أبناء المجتمع

تجاه بعضهم البعض أو تجاه العالم ومكانهم فيه بشكل عام. وباختصار فبإمكان الباحث إجراء المقابلات للحصول علىٰ أية مادة أثنوجرافية تفيد وتثري موضوع بحثه. وهناك أنواع من المقابلات هي:

أ ـ المقابلة المفتوحة (أو الحرة) unstructured (open - ended) interview

ويكون دور الباحث فيها تحديد الموضوع وبعض الأسئلة المتعلقة به، إنما يدع المجال للإخباري ليتحدث حول الموضوع بحرية دون تقيده بنوع دقيق وعدد معين من الأسئلة. وتكمن فائدة هذا النوع من المقابلات بأنها تسمح للإخباري ليقوم بالاستدراك والتذكر والتعقيب والتقييم وإبداء الرأي مما يوفر للباحث مادة أثنوجرافية غزيرة حول الأحداث والوقائع في مجتمع دراسته.

ب ـ المقابلة المقننة (أو المنضبطة) structured interview

ويحرص الباحث فيها علىٰ تحديد الموضوع بصورة دقيقة ويضع أسئلة محددة بحيث تمكنه من ضبط إجابات الإخباري وعدم السماح له بالخروج أو الدوران في مسائل خارجة عن الموضوع.

ج ـ المقابلة المطولة the in - depth interview

ويستخدم عادة الأنثروبولوجيون السيكولوجيون هذا النوع من المقابلات للبحث في موضوعات ثقافية أو موضوعات مرتبطة بالحياة الدنية مع بعض أفراد المجتمع للتعرف وفهم النظرة الباطنية الخاصة بثقافة المجتمع. وتستخدم هذه الطريقة كذلك عند دراسة القادة السياسيين والمجددين الثقافيين الذين يلعبون أدواراً كبيرة في إحداث تغيرات في مجتمعاتهم المحلية.

د ـ المقابلات مع «الإخباري الأساسي key - informant

بعد أن يكون الأنثروبولوجي قد نجح في توطيد علاقات جيدة

مع بعض أفراد المجتمع فيمكنه أن يلجأ إليهم كإخباريين أساسيين يعتمد عليهم ويجري معهم مقابلات متكررة للحصول على معلومات دقيقة حول أحداث المجتمع ووقائعه.

٤ ـ دراسة الحالة case study

وهذه عبارة عن التفات الباحث لدراسة حدث معين أو شخص أو مجموعة أشخاص في موقع وتاريخ محددين أثناء فترة إجراء الدراسة الحقلية، ويقصد بها توثيق مفصل ودقيق للأحداث مثلاً كالانتخابات، أو اختيار زعيم أو ممثل سياسي، أو نزاع قبلي أو شجار عائلي أو حالة مرض ومعالجتها بوسائل الطب الشعبي إلخ. وتستخدم دراسة الحالة في أغلب ميادين واهتمامات الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية إذ إنّ كتابتها بصور مفصلة دقيقة يقدم للأنثروبولوجي حججاً وأدلة كافية ومقنعة لمناقشة مواقف نظرية معينة يراد التحقق منها أو تعديلها وتطويرها.

٥ ـ سيرة الحياة life - history

إنّ أكثر أنواع المقابلات بتفاصيلها ودقتها هي تلك التي يجريها الباحث مع أحد مخبريه الأساسيين من أجل الحصول على قصة حياته بصورة كاملة دقيقة. ويعتمد الحصول على هذا النوع من المعلومات أصلاً على وجود علاقة ثقة متبادلة أو صداقة بين كل من الباحث والإخباري (المبحوث) ابن المجتمع المحلي. وتمثل عادة سيرة الحياة لأي شخص من الأشخاص نهراً غزيراً وغنياً بالمعلومات الثقافية والأحداث التاريخية المحلية، لذا يحرص الباحث عادة لتأطير مقابلاته مع الإخباري المبحوث وتوجيهها حتى لا يأتي هذا الانسياب للمعلومات منصباً في شعاب واتجاهات متباعدة بحيث قد تأتي محدودة الفائدة في إلقاء الضوء على الموضوعات التحليلية والنظرية التي قد حددها الأنثروبولوجي في دراسته.

٦ ـ أساليب بحثية متخصصة:

كون أنّ الأنثروبولوجيا الثقافية تحتوي مجالات واهتمامات علمية متعددة، فقد استدعى التطور العلمي لهذه المجالات ابتكار أو تطوير أو استعارة أساليب وأدوات بحثية متخصصة لتساعدهم في الحصول على المعلومات التي تلائم الموضوعات الدقيقة في مجالاتهم العلمية. فعلى سبيل المثال لا الحصر نرى أنّ الأنثروبولوجيا النفسية (السيكولوجية) قد تمكنت منذ مطلع الأربعينات من استخدام أدوات وأساليب بحث مستخدمة في علم النفس. فقد استخدم هؤلاء الباحثين مثلاً الاختبارات الإسقاطية (أو غير المتشكلة). وكذلك جمع مادة الأحلام وتفسيرها. وبالطبع يستخدم الأنثروبولوجيون النفسيون هذه الأدوات لتكمل المادة التي يتمّ جمعها عادة من خلال الملاحظة الميدانية بأنواعها ومستوياتها المختلفة.

تعتبر مارجريت ميد (١٩٠١ ـ ١٩٧٩) من أبرز الأنثروبولوجيين الأمريكيين بسبب بحوثها وكتاباتها الأثنوجرافية في مناطق كثيرة من العالم.

قارنة بين طريقة المسح الاجتماعي والدراسة الأنثروبولوجية حقلية:

١ ـ تتجه الدراسة في المسوح الاجتماعية social surveys ستخدمة عادة في علم الاجتماع على اختيار عينة sample بطريقة شوائية أو غير ذلك، بينما يدرس الأنثوجرافيين مجتمعات محلية ملة وحيه تعيش في أحوالها الطبيعية.

٢ ـ يجري الأنثوجرافيون دراساتهم الميدانية عن طريق الاتصال لمعايشة المباشرين حيث يقيموا علاقات مباشرة مع الناس الذين اءوا لدراستهم. ويحاول الأنثوجرافيون دائماً بناء علاقات تواصل rappor مع أبناء المجتمع وكذلك بناء علاقات عمل مع الإخباريين imformar بينما غالباً ما نرى أنّ باحثي الدراسات المسحية لا تمون بالاتصال المباشر مع المبحوثين الذين يطلب منهم وضع ابات على أسئلة مبوبة ومرقمة في استبانات أعدت طباعتها مسبقاً. غالباً ما يستخدم الباحث في مشاريع المسح الاجتماعي مساعدين ملون معه لقاء أجور محددة.

٣ ـ يصل الأنثوجرافي إلى معرفة إخبارية والتعامل معهم على هم أشخاص حقيقيين، ولذا فإنه يهتم بحياتهم الكلية بينما ينظر حث المسح الاجتماعي إلى الناس على أنهم ممثلين عينات جماعات سكانيه كبيرة، كمجيبين as respondants يجيبون على أسئلة التي وردت في استباناته.

٤ ـ بما أنّ البحث المسحي يتم عادة بين جماعات سكانية بيرة ومتنوعة فإنه يعتمد على أساليب التحليل الإحصائي للوصول ى النتائج، بينما أنّ الأنثوجرافيون يدرسون في أغلب الأحيان جماعات أصغر حجماً وربما أقل تنوعاً فإنهم ليسوا بحاجة لمعرفة قيقة بالإحصاء. (كوتاك: ١٩٨٧: ٤٤).

٥ ـ بينما نرى عادة أنّ الباحث الاجتماعي يشير في مقدمة

دراسته أو كتابه إلى الطرق التي وضع فيها فرضياته وإطاره النظري لدراسة ظاهرة أو جماعة ما، وكيف اختار بعض المقاييس الاختبارية الاجتماعية وأنواع الأسئلة، وكيف حدّد مؤشراتها ومضامينها، وكيف تمّ الحصول على الإجابات والإحصائيات، نرى بالمقابل أنّ غالبية الأنثوجرافيين اليوم يصفون بإسهاب في مقدمات دراساتهم ما يمكن باختصار تسميته «بتجاربهم الذاتية» في الدراسة الحقلية. أي وصف لماذا وكيف بدأ اهتمامهم بهذا المجتمع أو ذاك، واتصالهم وتعرفهم على المسؤولين في المجتمع، وكيف دخلوه لأول مرة، وتصوراتهم الأولية لثقافة الناس، وأنماط سلوكهم، وكيف بدأوا تعلم اللغة المحكية، واتصالهم بالناس والإخباريين لمعرفتهم وكسب ثقتهم. ويصفوا لنا في أحيان كثيرة المشاكل والعقبات وصور التكيف التي قد تعترض التجربة الإنسانية الجادة وهي تحاول دراسة الآخرين وفهم تجاربهم الثقافية والاجتماعية لبناء عوالمهم الإنسانية في عالم متغير.

وتجدر الإشارة هنا إلا إنه بالرغم من وجود نقاط الاختلاف والتباين هذه بين طريقتي الدراسة الحقلية الأنثروبولوجية والمسح الاجتماعي إلاّ إن هناك اليوم قد ظهر ازدياد واضح في مواطن التقارب والالتقاء بينهما ويعود هذا أساساً بسبب بروز تشابه متزايد لنوعية المجتمعات والظواهر والموضوعات في المجتمعات المعقدة الكبيرة التي بدأ يتجه جميعهم لدراستها. فبالإضافة إلى أساليب وأدوات البحث الأنثروبولوجية الآنفة الذكر فقد طوّر الأنثروبولوجيون خلال العقود الأربعة الأخيرة بعض الأساليب والأدوات البحثية، ومن بين هذه الأساليب مثلاً نرى استخدام العينة الاجتماعية والمسوح الاجتماعية، والاعتماد أحياناً على فريق البحث، والاستخدام المتزايد للأدوات التكنولوجية الحديثة، كآلة التصوير، وآلة التسجيل، والأفلام، والفيديو، التي ساعدتهم في إجراء دراساتهم في عالم معقد متغيّر.

بطاقة تعريفية لسيرة: ـ فرانز بواس (١٨٥٨ ـ ١٩٤٢) Franz Boas

ولد بواس في ألمانيا وتلقىٰ تعليمه في البداية في الفيزياء والجغرافيا، إلاّ أنّ أسفاره ورحلاته في مناطق مختلفة كانت تمثل له تجارب مثيرة وهامة في حياته مما جعله يميل إلىٰ دراسة الإنسان والثقافة.

قام بواس بدراسات أثنوجرافية ورحلات جغرافية في بلاد الأسكيمو في شمال أمريكا إلىٰ جانب دراسات أخرىٰ للقبائل التي تعيش في غرب كندا.

وكانت دراسته وتجاربه الميدانية في بلاد الأسكيمو من العوامل التي أبعدته عن الأخذ بمبدأ الحتمية الجغرافية (أي إنّ العوامل لجغرافية والبيئية هي التي تحدد الأشكال الثقافية لشعب ما من لشعوب).

كان بواس من الداعين لإدخال الدراسة الميدانيية (الحقلية) في أنثروبولوجيا وجعلها من المتطلبات الرئيسية للعاملين في هذا ميدان، وكان هو نفسه من الممارسين البارزين في الدراسات يدانية. شغل بواس أول وظيفة له في الولايات المتحدة الأمريكية ستاذ للأنثروبولوجيا، كما قام بتأسيس قسم الأنثروبولوجيا في جامعة لومبيا في نيويورك. كان يقف ضد التيار التطوري القديم الذي ل من مكانة الثقافات البدائية والذي يرىٰ أنّ التطوّر الثقافي يسير

وفق خطة منتظمة ذات اتجاه واحد. ويعتبر بواس من علماء الأنثروبولوجيا الكبار الذين قالوا بفكرة «النسبية الثقافية». ويعتبر كذلك الأب المؤسس، والمعلم الأول للرواد من الأنثروبولوجيين الثقافيين في أمريكا. ولقد هيمن بواس وطلابه علىٰ الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية منذ مطلع هذا القرن لفترة امتدت لأكثر من أربعة عقود.

بطاقة تعريفية لسيرة: ـ برونسلو مالينوفسكي (١٨٨٤ ـ ١٩٤٢)
Bronislow Malinowski

ولد مالينوفسكي في عام ١٨٨٤ في كراكو في بولندا وتوفي عام ١٩٤٢ في نيوهافن في أمريكا. تلقى تعليمه في البداية في مسقط رأسه وتابع دراسته حتى حصل في عام ١٩٠٨ على درجة الدكتوراه في الفيزياء والرياضيات. وقد كانت إصابته بالمرض سبباً منعه من متابعة دراسته والعمل في مجال تخصصه. وخلال فترة مرضه أقبل على قراءة كتاب «الغصن الذهبي» لجيمس فريزر، الأنثروبولوجي البريطاني الشهير في عصره. وكانت قراءة مالينوفسكي لكتاب من تأليف أنثروبولوجي بارز في لغته الإنجليزية الأصلية حبّب له قراءة الأنثروبولوجيا مما جعله يظل معجباً بفريزر طوال حياته رغم الاختلافات الفكرية التي ظهرت بينهما فيما بعد. رحل مالينوفسكي إلى إنجلترا في عام ١٩١٠، والتحق كطالب في قسم الدراسات العليا في جامعة لندن، كما عمل في نفس الجامعة كمحاضر في قسم الاجتماع بين عامي ١٩١٣ ـ ١٩١٤ في مواد متخصصة مثل «الديانة البدائية والتباين الاجتماعي» و «علم النفس الاجتماعي».

عمل مالينوفسكي في بداية نشاطه العلمي مع سليجمان

ووسترمار، ولقد ظلّ مديناً لسليجمان في إعداده المهني وتدريبه الميداني في الأنثروبولوجيا. حصل مالينوفسكي عام ١٩١٤ على منحة بمساعدة سليجمان للقيام بدراسات ميدانية في غينيا الجديدة (New Guinea)، ثم سافر إلى أستراليا حيث التقى في ميلبورن بالأنثروبولوجي الشهير رادكليف براون لأول مرة حيث استعان منه في توجيهات وملاحظات حول الدراسات الحقلية. وبعد رحلات وزيارات قصيرة لبعض الجزر في المحيط الهادي حلّ به المطاب بجزر تروبرياند (Trobriand) التي أقام فيها فترة أربع سنوات يجري دراسته الميدانية الشهيرة، التي لا تزال تعتبر من أهم وأغنى التجارب الميدانية التي أسهمت إسهاماً كبيراً في ترسيخ الدراسة الحقلية كمرتكز أساسي في الدراسات الأنثروبولوجية. بعد أن أنهى دراسته الحقلية في جزر تروبرياند رجع مالينوفسكي إلى أستراليا عام ١٩١٨ وعاش لفترة وجيزة حيث تزوج هناك، ومنها عاد في عام ١٩٢٠ إلى جامعة لندن (LSE) ليعمل فيها كمحاضر في الأنثروبولوجيا. وشغل مالينوفسكي مكانة هامة في الأنثروبولوجيا البريطانية لمدة طويلة تتعدى الثلاثة عقود.

الخلاصة:

١ ـ تعتمد الدراسات الأنثروبولوجية بكل مجالاتها وفروعها على لدراسة الحقلية بشكل أساسي.

٢ ـ إنّ التنوع في المجالات العلمية لعلم الإنسان قد انعكس بصورة واضحة على تعدّد الأساليب والأدوات البحثية المستخدمة لجمع المادة العلمية عند إجراء الدراسات الحقلية.

٣ ـ يعتمد علماء الإنسان الطبيعيون بشكل أساسي على الحفريات وبقايا الهياكل العظمية والأنثروبومتري والبايومتري لدراسة ماضي الإنسان البيولوجي وتنوع خصائصه الجسمانية (الظاهرة والداخلية) كما تظهر في السلالات والجماعات البشرية.

٤ ـ يركز عالم الآثار الأنثروبولوجي على دراسة آثار ما قبل التاريخ لفهم تطور ماضي الإنسان الثقافي وأشكال تكيفه مع البيئات المختلفة. ويعتمد هؤلاء العلماء على طريقة المسوح الأثرية والحفر والتنقيب للكشف عن المواقع الأثرية والبقايا المادية لتجارب المجتمعات.

٥ ـ الدراسة الحقلية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية هي دراسة الناس وثقافتهم في مكان إقامتهم الطبيعي وتتطلب إقامة الباحث لفترة طويلة نسبياً في مجتمع الدراسة.

٦ ـ تمثل «الملاحظة بالمشاركة» المرتكز الرئيسي الذي يعتمد عليه الأنثروبولوجيون عند إجراء دراساتهم الحقلية.

٧ ـ تمثل تجربة مالينوفسكي الحقلية مثالاً نموذجياً مبكراً وضع لنا من خلاله أساسيات الدراسة الحقلية، إذ وصف بصورة مثلى متطلبات العمل الميداني، وكيفية إجراء أسلوب الملاحظة بالمشاركة، وأمور أخرى تتعلق بطبيعة الدراسة الحقلية.

٨ ـ يعتمد الباحث الأنثروبولوجي في وقتنا الحالي على اختيار

أساليب وأدوات أخرى، إذ يأتي استخدامها مكملاً لطريقة الملاحظة بالمشاركة. وأهم هذه الأساليب أو الأدوات: جمع المعلومات والبيانات الإحصائية، والمعلومات الخاصة بالنسب والقرابة، والمقابلات بأنواعها واختيار الإخباريين ودراسة الحالة، وسيرة الحياة، إضافة إلى بعض الأدوات البحثية المتخصصة التي تمليها متطلبات بعض التخصصات الفرعية في الأنثروبولوجيا الثقافية.

٩ ـ ظهور اتجاهات جديدة في الدراسات الحقلية من أبرزها توجه الأنثروبولوجيون للقيام بدراساتهم في المجتمعات المركبة الكبيرة، والتركيز المتزايد على موضوعات بحثية معينة بدلاً من الاهتمام بالدراسات الوصفية الكلية الشاملة. واستخدام المسوح الاجتماعية في بعض الأحيان. والاستخدام المتزايد للكميرا، وآلة التسجيل، والفيديو، وإدخال البعد الإنساني والتجارب الذاتية للباحث كجزء متكامل للدراسة الأثنوجرافية بصورتها العامة.

١٠ ـ تكمن أهمية الدراسة الحقلية بإمكانياتها في تزويد علماء الإنسان بالكتابات الوصفية الأثنوجرافية الدقيقة لكل الثقافات الإنسانية، وساعد هذا في ترسيخ الأنثروبولوجيا وتطورها كعلم وبناء الأفكار النظرية والمقولات العلمية العامة حول الإنسان وثقافاته.

مراجع الفصل الثاني:

سمير نعيم: محاضرات في المنهج العلمي في البحوث الاجتماعية ـ جامعة عين شمس، القاهرة (تاريخ النشر غير مذكور).

كيرلنجر، ف. ن: اقتباس ورد في مقال للدكتور/ عبد الله سليمان «دراسة السلوك بين التنظير والتجريب» (ص ١٧٥ ـ ٢٠٤) في كتاب منهاج البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية. بحوث ألقيت في الحلقة الدراسية الأولى لكلية الآداب، جامعة الكويت ٨٦ ـ ١٩٨٧.

فتحية محمد إبراهيم ومصطفى النشواتي: مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان. دار المريخ للنشر، الرياض ١٩٨٨.

حسين فهيم: أدب الرحلات: دراسة تحليلية من منظور أنثوجرافي، سلسلة عالم المعرفة رقم ١٣٨، الكويت، ١٩٨٩ م.

باودر ماكر، هورتنس: «الدراسة الحقلية» في كتاب مجالات الأنثروبولوجيا الاجتماعية: مختارات من الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية. ترجمة السيد حامد وعلية حسين. الكويت، دار القلم ١٩٨٥.

Bronislow Malinowski, Argonauts of the Western Pacific. Waveland Press. Illinois, 1961 (originally published in 1922).

R. Edegerton & L.L Langness. Methods and Styles in The Study of Culture. Chandler and shapr Puplishers. San Francisco 1974.

Conard Kottak, Cultural Anthropology. Random House, New York 1987.

الفصل الثالث

الخصائص الطبيعية للإنسان والسلالات البشرية

الفصل الثالث

تقديم: -

يختلف «علم الإنسان» عن العلوم الأخرىٰ في نظرته الشمولية التكاملية التي تسعىٰ إلىٰ الربط بين الظواهر «البيولوجية» والبيئية والاجتماعية المختلفة؛ وذلك في محاولة للتوفيق بين الخصائص المميزة للإنسان، والتي تتداخل في نسيج إلهي فريد قوامه الجسد والفكر والروح والعقيدة واللغة والوعي الاجتماعي، أي كل ما يفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات الأخرىٰ. ومن أجل تحقيق هذا الهدف تتسم دراسة «علم الإنسان» بالعالمية إذ إنّ دائرة اهتمامه تشمل الوجود البشري بأسره، أي الإنسان حيثما كان وكيفما كان عبر الحقب التاريخية وعلىٰ اتساع الامتداد الجغرافي. وبالإضافة لسعيه الدؤوب للربط بين العناصر المختلفة التي يتصف بها الإنسان، والتي تكوّن مجمل الحياة البشرية، فإنّ «علم الإنسان» يواجه تحدياً آخراً يتمثل في الربط بين «العالمية» و «المحلية»، و «الخصوصية». ويستدعي ذلك اتباع مناهج معينة تساعد علىٰ الوصف الميداني الدقيق والتشخيص الشامل للمجتمعات والثقافات المختلفة. وعلىٰ الرغم من الحرص علىٰ النظرة الشمولية والتكاملية التي تميز «علم الإنسان» عن سائر العلوم الأخرىٰ، إلا أن ذلك لم يحل دون وجود التخصصات الفرعية داخل هذا العلم. ومن بين تلك التخصصات «الأنثروبولوجيا الطبيعية».

تحتل «الأنثروبولوجيا الطبيعية» مكاناً خاصاً بالنسبة لدراسات «علم الإنسان». وليس ذلك تعظيماً لشأنها أو تقليلاً لشأن الأفرع

الأخرىٰ التي تعني بدراسة الجوانب الاجتماعية والحضارية من علم الإنسان، ولكن لسببين هامين يتلخصان في التالي:

أولاً: إنّ «علم الإنسان» اهتم ومنذ فترة نشأته الأولىٰ بدراسة جسم الإنسان وخصائصه المختلفة، وتصنيفاته إلىٰ سلالات، وأنّ تلك الجوانب التي تدخل في دائرة اختصاص «الأنثروبولوجيا الطبيعية» تتصل بمعالم مرئية وواضحة يلاحظها المرء بسهولة ويسر في حياته اليومية وفي من حوله من الناس. ومن بين تلك الجوانب اختلاف أشكال الناس وألوانهم وأحجامهم وملامح وجوههم؛ وذلك علىٰ عكس الموضوعات الكامنة وغير المرئية التي تعنىٰ بدراستها «الأنثروبولوجيا الاجتماعية» أو «الأنثروبولوجيا الحضارية أو الثقافية» مثل القيم والأعراف والمعتقدات. إلخ.

ثانياً: إنّ أغلب الأفكار التي ارتبطت بالأنثروبولوجيا الطبيعية مثل المفاهيم المتصلة بنشوء الإنسان وتطوره، وبموضوع السلالات البشرية وما ترتب عليها من استنتاجات، كانت ـ وما زالت ـ مجال أخذ ورد وجدل ورفض. ولقد نتج عن ذلك رواج العلم المعني بتلك القضايا في دوائر العامة والخاصة.

وعلىٰ الرغم من أنّ أغلب الدراسات المتصلة بالأنثروبولوجيا الطبيعية تمت خارج دائرة «علم الإنسان»، بل خارج دائرة العلوم الإنسانية والاجتماعية بمفهومها الحديث، إلا أنها تركت أثراً بالغاً علىٰ هذا العلم. انعكس هذا التأثير علىٰ «علم الإنسان» بشكل عام، لا سيما من حيث تسميته، ونظرة الناس إليه، وما أحيط به من غموض. وما زالت هيمنة الجانب الطبيعي المتمثل في «الأنثروبولوجيا الطبيعية» تنعكس علىٰ تسمية هذا العلم. ومن بين الأسماء المتداولة والتي تحظىٰ بقدر من الرواج «علم الأجناس» أو «علم الأجناس والسلالات»؛ وتطلق هذه الأسماء لتعني «علم الإنسان» بشكل عام وليس للدلالة علىٰ «الأنثروبولوجيا الطبيعية». كما تنعكس هذه الهيمنة

علىٰ بعض التعريفات الخاصة بعلم الإنسان، والتي تركز علىٰ أنه العلم الذي «يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه...»[١].

وكان لا بدّ للدراسات الحديثة عن «علم الإنسان» من أن تتصدّىٰ لتلك الأفكار والنظريات بالتعديل والتغيير، وتسعىٰ لتصحيح مسار «الأنثروبولوجيا الطبيعية» بصورة تجعلها مواكبة للتطور العلمي في شتىٰ مجالات المعرفة، لا سيما بالنسبة للموضوعات التي تتناولها الأفرع الأخرىٰ لعلم الإنسان. وتمثل تلك المحاولات الخطوة الرئيسة في ردم الهوة بين الأفرع المختلفة لعلم الإنسان، كما تعتبر خطوة هامة نحو توجيه «الأنثروبولوجيا الطبيعية» إلىٰ دائرة المرتكزات الأساسية لعلم الإنسان. ولقد أسهم في تحقيق هذا الهدف توفر المعلومات وإلقاء المزيد من الأضواء علىٰ الموضوعات التي يدرسها «علم الإنسان»؛ وذلك من خلال:

أ ـ القيام بالدراسات الحقلية الوصفية.

ب ـ الاهتمام بأثر البيئة علىٰ خصائص جسم الإنسان وسلوكه.

جـ ـ الدراسة المقارنة علىٰ هدىٰ العمل الحقلي بين مختلف الشعوب والثقافات. ونتيجة لهذه التطورات في دراسة «علم الإنسان» أصبح من المسلمات الضرورية تناول الظواهر الإنسانية ودراستها في سياقها الحضاري، من غير إهمال لعالميتها وشمولها وامتدادها عبر الزمان والمكان.

وقبل الدخول في الحديث عن الخصائص الطبيعية المميزة للإنسان والسلالات البشرية، لا بدّ من وقفة قصيرة عند مفهوم الخلق، فتلك السلالات ما هي إلاّ من خلق الباريء سبحانه وتعالىٰ. والخلق يتصل اتصالاً مباشراً بالعقيدة، والعقيدة يعتنقها أفراد المجتمع عن رضىٰ وقناعة وهي تستوجب الإيمان والتصديق. ولذلك وجدت الأفكار المتصلة بالخلق والتي طرحتها بعض النظريات الأنثروبولوجيا رفضاً تاماً، لا سيما بين معتنقي الديانات السماوية؛ وذلك لأن تلك

الديانات لها مفاهيم واضحة ومحددة عن الخلق، لا سيما خلق الإنسان.

مفهوم الخلق في الإسلام:

ووفقاً لتعاليم الإسلام، الإنسان هو خليفة الله في أرضه، وحامل رسالته، والمؤتمن على مخلوقاته الأخرى، وهو صفي الله الذي خصه بالعقل والفكر والإيمان واللغة. ولذلك فقد وقف الإسلام موقفاً رافضاً تجاه النظريات التي لم تعترف بالفوارق الجذرية والفطرية بين التجمع الحيواني والمجتمع الإنساني. كما وقفت الديانات السماوية الأخرى ذات الموقف من تلك النظريات. ولقد أشارت الدراسات التي تنطلق من منظور الفكر الإسلامي إلى اختلافات واضحة ومقنعة توجب ضرورة التمييز بين التجمع الحيواني والمجتمع الإنساني. ومن بين تلك الاختلافات ما يلي:

١ ـ التجمع الحيواني ليس له ثقافة أو حضارة، وأفراده ليست لهم شخصيات مميزة؛ وسلوكهم لا يصدر عن العقل أو الخبرة الإنسانية المكتسبة، بل تتحكم فيه الغريزة.

٢ ـ التجمع الحيواني يشمل أشكالاً بسيطة وأخرى معقدة بشكل متنوع ومتعدد... فكل شكل من أشكال الحيوان يمثل نمطاً مغلقاً لا يتطور إلى نمط آخر. وأما الإنسان، فعلى الرغم من أنه نمط واحد من حيث التركيب «الفسيولوجي»، إلا إنه يغير نمط حياته ويبدل مجتمعه... والإرادة الإنسانية واقع ملموس وله تأثير على ما حولنا من كائنات ومخلوقات.

٣ ـ يولد الفرد في المجتمع الحيواني قادراً على الحياة ويستطيع صغير الحيوان أن يؤدي دوره المحدود بصورة مباشرة بعد ولادته؛ أما الإنسان فيحتاج لعملية تعليم وتعلم تتوفر من خلال التنشئة الاجتماعية والخبرات والمعارف التراكمية السابقة التي تمثل ثقافة أهله ومجتمعه.

٤ ـ السلوك الحيواني الصادر عن الغريزة والفطرة يتصف

بالمحدودية ولذلك يسهل رصده وتعميم الأحاكم بشأنه، وأما السلوك الإنساني فهو شامل ومعقد ومتنوع لأنه نتاج مفاهيم وأفكار متفاوتة تختلف وفقاً للمؤثرات البيئية والمجتمعية. ولذلك يصبح التنبؤ بالسلوك الإنساني أمراً في غاية الصعوبة.

٥ ـ الإنسان أهبط على الأرض بشراً سوياً ولم ينشأ إرتقائياً[٢]:

وإن كان علم الإنسان الطبيعي يُعالج موضوعات شتى ومتنوعة فإن هذا الفصل سوف يتناول بعض الموضوعات الأساسية التي يمكن تقسيمها إلى قسمين كبيرين على النحو التالي:

أولاً: دراسة الخصائص الفيزيقية (البيولوجية) التي تميز الإنسان عن سائر الكائنات الحية الأخرى.

ثانياً: دراسة التنوع أو الاختلاف داخل الجماعات البشرية في بعض الجوانب الطبيعية أو البيولوجية والتي على أساسها تُصنف الجماعات البشرية إلى سلالات معينة تختص كل منها بخصائص «فيزيقية» محددة

الخصائص الطبيعية للإنسان

إنّ الإنسان مخلوق متميز، ويرجع تميزه عن سائر الكائنات الحية الأخرىٰ إلىٰ حقيقة هامة وهي أنه يختص بسمات وخصائص طبيعية (فيزيقية) وبيولوجية مكّنته من أن يتعدّىٰ الشروط والقيود الطبيعية الخلقية ويكتشف ويؤسس وسائل ونظم تؤلف في مجملها ما يعرف بالثقافة أو الحضارة.

وأول ما يتبادر إلىٰ الذهن عند الحديث عن الخصائص البشرية المميزة للإنسان هو «العقل» ولكن تصور «العقل» وما يرتبط به من أنماط مختلفة من التفكير المنطقي والسلوك الرشيد والقدرة علىٰ صياغة الأفكار في رموز أو لغة.

يرتبط ارتباطاً مباشراً بالأساس الطبيعي البيولوجي المتمثل في عضو هام وهو المخ أو الدماغ. لكن هذا العضو وحده - أي المخ - ليس كافياً لتفسير الاختلاف بين الإنسان والكائنات الحية الأخرىٰ، بالإضافة إلىٰ أنه لا يمكن أن يؤدي وظائفه (بل لا يمكن أن يوجد بالشكل الذي هو عليه) دون الأعضاء الأخرىٰ أو دون التركيب أو البناء الطبيعي الفيزيقي للجسم البشري. فالأعضاء المؤلفة للجسم البشري تكون متداخلة ومتكاملة بصورة قوية بحيث يؤثر كل منها في الآخر.

وتشير الفقرات التالية إلىٰ بعض الخصائص الفيزيقية المتعدّدة والمتنوعة والمميزة للإنسان كما نوضح ارتباطها ببعضها.

١ ـ اعتدال القامة.

٢ ـ اليد.

٣ ـ الرؤية (الإبصار).

٤ ـ المخ.

٥ ـ اللغة.

وقد تبدو بعض هذه الخصائص علىٰ أنها مشتركة بين الإنسان وبعض الكائنات الحية الأخرىٰ وخاصة القردة (الغوريلا والشمبانزي) إلا أنها تختلف عند الإنسان اختلافاً تشريحياً وكيفياً تميزه عن تلك الكائنات أو الحيوانات. وسوف نتناول كل خاصية علىٰ حدة بغرض التفسير والتوضيح هنا مع التأكيد علىٰ أنه لا يمكن فصل أو عزل بعضها عن التعليق الآخر في واقع الحياة العقلية للجسد البشري.

أولاً: اعتدال القامة:

ترتبط هذه الخاصية ارتباطاً جوهرياً بتركيب الهيكل العظمي عند الإنسان. فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي تتوفر لدىٰ هيكله العظمي المقومات الأساسية للوقوف علىٰ قدمين والسير وهو معتدل القامة وهي خاصية تفتقدها كل الكائنات الأخرىٰ. وقد توجد بعض الكائنات الحية الأخرىٰ التي يمكن لها أن تقف علىٰ قدمين وتستخدم القدمين في الحركة مثل حيوان الكانجارو والغوريلا والدببة والطيور كالنعام وطائر البطريق. لكن بالرغم من ذلك يبقىٰ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعتمد علىٰ القدمين اعتماداً كلياً ومطلقاً، وهو الكائن الوحيد الذي يقف معتدلاً بصورة رأسية كاملة (انظر شكل ١). فحيوان الكانجارو يستخدم ذيله كعضو ثالث في عملية القفز وليس السير، كما أنّ الكائنات الأخرى لا يمكنها أن تأخذ وضعاً رأسياً كاملاً مثل الإنسان.

وإن كان بعض العلماء يرون تشابهاً بين الهيكل العظمي للإنسان والهيكل العظمي للشمبانزي، إلا إنهم يؤكدون في نفس الوقت على وجود اختلافات جوهرية وكيفية بينهما؛ إذ إنّ هناك خصائص ومقومات فيزيقية خاصة بالإنسان ساعدت هيكله العظمي لأن يأخذ الشكل الذي هو عليه. ومن هذه الخصائص الفيزيقية التي يسرت على الإنسان السير والوقوف معتدلاً مرونة حلقة الاتصال بين العمود الفقري والحوض ومرونة حلقة الاتصال بين الحوض وعظام العجز. ويفتقر الحيوان أو الشمبانزي لهذه الخاصية حيث أنّ حلقة الاتصال لديه تأخذ وضعاً أفقياً كاملاً (كما هو في الدواب) أو وضعاً مائلاً قليلاً إلى أعل بزاوية أكثر انفراجاً وليست كاملة الانفراج، والشمبانزي مثال على هذه الحالة[٣] (انظر شكل ٢ الذي يوضح الفرق بين الهيكل العظمي عند الإنسان والهيكل العظمي عند القردة).

وهناك خاصية ثانية ترتبط بالحوض إذ إنّ عظام الحوض عند الإنسان واسعة وعريضة تسهل اعتدال القامة، بينما عظام الحوض عند الحيوانات تكون ضيقة ومستطيلة تجعل من استقامة القامة أمراً مستحيلاً (شكل ٣) وخاصية ثالثة هامة وهي الشكل أو التركيب التشريحي للقدم عند الإنسان الذي يساعد الجسد ككل في اتخاذ الوضع معتدلاً. فالإصبع الكبير بالقدم يتسم بالاستدارة والثبات والقوّة وشدّة الارتباط بالأصابع الأخرى وهي خصائص هامة في تحقيق التوازن في الأوضاع المرتبطة بالوقوف أو السير أو الحركة. بينما الإصبع الكبير في قدم الشمبانزي يكون صغيراً بالنسبة للأصابع الأخرى ولا يمثل ارتباطاً قوياً بها وذلك لاستخدامه في أغراض التسلق. بالإضافة إلى ذلك تتسم قدم الإنسان بأنها تأخذ شكلاً مقوساً وخاصة في الجزء الأعلى مما ينتج عنه تجويفاً بأسفل القدم يساعد على الحركة لتخلل الهواء فيه، بينما قدم الشمبانزي مفلطحة (انظر شكل ٤). والخاصية الرابعة ترتبط بطول الذراع إذ إنّ ذراع الإنسان قصيرة إذ لا تصل بأي حال من الأحوال إلى مستوى الركبة، بينما

الأرجل طويلة. والعكس نجده عند القردة أو الشمبانزي إذ إنّ الأذرع طويلة وتصل إلى مستوى الأقدام وذلك يؤكد على أهميتها في السير وفي تسلق الأشجار بينما الأرجل قصيرة. والنصف الأسفل بصفة عامة عند القردة يكون أقصر وبشكل ملحوظ من النصف الأعلى بينما العكس عند الإنسان إذ يكون النصف الأعلى أقصر من النصف الأسفل أو على الأقل في حالة توازن وتكافؤ. وهناك خصائص أخرى لا تقل أهمية عن الخصائص السابقة وتتمثل في أنّ عظام الفخذ عند الإنسان عريضة بشكل يجعلها تتحمل ثقل الجسد كما أنه أي الفخذ يتمتع بعضلات قوية تساعده على وظيفته في حمل الجسد[٤].

إنّ السير أو الوقوف معتدلاً عملية معقدة تعتمد على توازن الجسم البشري ككل حيث تنقبض وتنبسط عضلات الأقدام والأرجل والمؤخرة والظهر طبقاً لأوامر متزامنة تصدر من المخ ينقلها الحبل الشوكي، وهذا التوازن جعل الإنسان يتمكن من حمل الأثقال بينما هو يسير ولمسافات ليست قصيرة. وهذه الخاصية مكنته من المشي والهرولة والعدو والقفز أو الوثب بصورة مرنة وبسرعات مختلفة جعلته يتكيف مع البيئة التي يعيش فيها.

ثانياً: اليد:

إنّ الاستخدامات الكثيرة والمتنوعة لليد والتي يتمتع بها الإنسان دون سائر الكائنات الحية الأخرى إنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالخاصية السابقة أي الوقوف معتدلاً. كما أنّ الأقدام والأرجل التي أتاحت للإنسان أن يقف معتدلاً وأعطت للأذرع واليدين الفرصة الجيدة للتحرر واستخدامها في إنجاز كثير من الأشياء. وخاصية تحرر اليدين وعدم استخدامهما في السير كما هو الحال عند الحيوان وخاصة القردة (الشمبانزي) تعد من إحدى المميزات أو السمات التي تميز الإنسان عن الحيوان.

يستطيع الشمبانزي أن يمسك بإصبع الموز ويسير في وضع شبه

معتدل إلا إنه لا يستطيع أن يحافظ على توازنه بصورة دائمة ولذلك فإنه يستخدم أحد اليدين في لمس الأرض أو أي شيء صلب كي يحقق التوازن عندما يحاول الوقوف والسير معتدلاً، على العكس من ذلك نجد أنّ الإنسان يستطيع الوقوف والسير على قدمين بصورة كاملة ولفترات زمنية طويلة دون أن يستند إلى شيء أو استخدام اليدين أو إحداهما بغرض تحقيق التوازن.

ولا يقتصر الأمر على مجرد تحرر اليدين عند الإنسان، وإن كان لهذه الخاصية أهمية عظمى، بل نجد أنّ تركيب اليد عند الإنسان يختلف اختلافاً جوهرياً عن تركيب اليد عند الشمبانزي؛ حيث إنه على سبيل المثال يتميز بخصائص تجعله يفوق إصبع الإبهام عند الشمبانزي. فإصبع الإبهام عند الإنسان يكون أكبر وأكثر مرونة من حيث الحركة حول الرسغ بشكل يجعله يلمس أطراف الأصابع الأخرى كل على حدة، ويلمسها جميعاً في نفس الوقت، بينما إصبع الإبهام عند القردة يكون صغيراً وثابتاً لا يتحرك، وبالتالي لا تتوفر لديه القدرة على لمس الأصابع الأخرى في اليد (انظر الشكل ٥). وإن كانت يد القردة تستطيع أن تقبض على الأشياء بقوة إلا إنها لا تستطيع أن تستخدم أطراف أصابعها في التقاط الأشياء الدقيقة أو الإمساك بأشياء معينة مثل القلم والملعقة بصورة مشابهة للإنسان حيث إنّ ذلك يتطلب تنسيقاً بين إصبع الإبهام وأطراف الأصابع الأخرى[٥].

والخاصية السابقة التي تتمتع بها يد الإنسان مكنته من أن يخترع ويبتكر الوسائل والأدوات، التي تساعده في التكيف والتأقلم مع البيئة وتطور حياته مثل اختراع وابتكار أدوات صنع الملابس والحياكة، وأدوات الطهي، وأدوات الزراعة والصيد والقنص، والأدوات الموسيقية، وأدوات الكتابة، وغيرها من أدوات ووسائل جعلته يوصف بحق بأنه كائن صانع ومستخدم للآلة أو التقنية وأنه مبدع للفنون.

ومرونة حركة الأصابع والتنسيق الدقيق بين أطرافها جعلها قادرة

على فعل أشياء كثيرة وليس مجرد اختراع الأدوات وهذه الأفعال تتضمن على سبيل المثال القدرة على الكتابة والرسم والعزف على الأدوات الموسيقية، وبناء المساكن وغسل وعصر الملابس، وعجن ومزج الأشياء بعضها ببعض، والحفر والنبش والتسلق والسباحة، واختبار الأشياء عن طريق اللمس. فاليد وسيلة هامة للتعرف على الأشياء المحيطة بالإنسان وخاصة في الظلام، وهي بذلك تقوم بوظيفة العين أو البصر إذ إنه من خلال لمس الأشياء باليد في الظلام يتفادى الإنسان مخاطر عدم الرؤية كما أنه يصل إلى الهدف المرغوب دون إهدار للوقت وهي بذلك تستطيع أن تؤدي وظيفة لا تستطيع أن تؤديها العين[٦].

ثالثاً: الإبصار أو الرؤية:

لم تؤثر خاصية الوقوف أو السير معتدلاً عند الإنسان على تحرير يديه فقط بل امتد التأثير إلى وضع الرأس وتهيئة الإبصار بشكل جيد. فالرأس، كما سبقت الإشارة، تكون عمودية ومتصلة بالعمود الفقري بشكل يحقق الارتفاع أو الطول المناسب للجسد. وهذا الارتفاع يحقق للعينين رؤية أكثر بعداً بالمقارنة بالحيوانات الأخرى. فالعيون التي تكون على مستوى أو ارتفاع قدمين أو ثلاثة من الأرض تستطيع أن ترى الأشياء المنخفضة على بعد يتراوح بين ٦ إلى ٧ كم بينما العيون التي تكون على مستوى خمسة أو ستة أقدام من الأرض كما هو الحال عند الإنسان تستطيع أن ترى الأشياء على بعد يتراوح بين ١١ إلى ١٢ كم. إن مرونة حركة العينين ووضع الرأس المميز للإنسان وانتصاب قامته جعلته في وضع يستطيع به أن ينتقل ببصره من مستوى قدميه إلى الأفق البعيد في عملية مسح بصري للمنطقة التي يقف فيها[٧].

كما أنّ وضع العينين من رأس الإنسان أو وجهه تتيح مجالاً من الرؤية أوسع من مجال الرؤية عند الحيوانات التي تكون رأسها

منخفضة وليست باعتدال أو استقامة رأس الإنسان. ويمتد مجال الإبصار عند الإنسان إلىٰ جزء من المنطقة التي تحيط به من الخلف، أي إنه يستطيع رؤية الأشياء من الأمام بينما في نفس الوقت لا يعدم الرؤية من الجانبين. وإن كان الجواد (الحصان) يتسطيع أن يرىٰ من الخلف إلا إنه يكون محدوداً بوضع العينين علىٰ جانبي الرأس أو الوجه. وإن كان الصقر يتمتع بقوة إبصار حادة إلا إنه لا يستطيع تحريك عينيه بل يحرك رأسه عندما يرغب في تتبع فريسته. أما عيني الإنسان فإنها تتميز بالقدرة علىٰ الحركة وعلىٰ تتبع الأشياء المتحركة.

إنّ وضع العينين في مقدمة وجهة الإنسان علىٰ عكس الحيوان الذي تقع عيناه علىٰ جانبي الرأس أو الوجه، جعل عيني الإنسان قادرتين علىٰ التركيز معاً عند النظر إلىٰ موضوع واحد بعينه بحيث تنطبع صورة هذا الموضوع في المخ في أبعاده الثلاثة، بينما يفتقر الحيوان إلىٰ هذه الخاصية فهو لا يستطيع التركيز علىٰ موضوع واحد بالذات وبالتالي تنعدم لديه رؤية التفاصيل الدقيقة لذلك الموضوع[٨].

لقد أثبتت الأبحاث العلمية أنّ عيني الإنسان قادرتان علىٰ رؤية الألوان، بينما يفتقر الحيوان إلىٰ هذه الخاصية؛ والقدرة علىٰ رؤية الألوان أعطت الفرصة للإنسان ليركز علىٰ التفاصيل الدقيقة للأشياء ويراها في علاقتها بالضوء والشكل والحجم. والحيوانات تتصف بعمىٰ الألوان فالثور الهائج في حلبة مصارعة الثيران لا يدرك، كما يفعل الإنسان، اللون الأحمر للقماش الذي يستخدمه المصارع في إثارته، علىٰ العكس مما هو شائع بين الناس أنّ هياج الثور راجع إلىٰ رؤيته للون الأحمر.

تتصف عينا الإنسان بالقدرة علىٰ تقدير المسافة بين الأشياء، بالإضافة إلىٰ القدرة علىٰ تتبع الأشياء في حركتها وسكونها، بينما يفتقر الحيوان إلىٰ هذه الخاصية. فالإنسان يستطيع رؤية الأشياء وهي ثابتة لا تتحرك ويستطيع أن يقدر المسافة التي تفصله عن تلك الأشياء

في سكونها وحركتها. وعلىٰ العكس من ذلك يعتمد الحيوان في الرؤية علىٰ حركة الأشياء. فالكلب باستثناء حاسة الشم - لا يستطيع أن يدرك أو يحدد وجود حيوان آخر كالأرنب مثلاً في مكان بعيد نسبياً بدون حركة ذلك الحيوان. ولذلك فإنه في حالة سماع ضوضاء أو صوت بعض الحيوانات المفترسة يتجمد الأرنب مكانه ولا يتحرك وذلك بغرض التمويه والاختفاء، وإلا فإنه إذ تحرك فسوف يراه الحيوان المفترس ويقضي عليه[٩].

ويمكن إجمال أهم الخصائص المميزة للإبصار عند الإنسان والتي يفتقر إليها الحيوان علىٰ النحو التالي:

١ - اتساع مجال الرؤية أفقياً ورأسياً.

٢ - رؤية الألوان.

٣ - القدرة علىٰ تتبع التفاصيل الدقيقة.

٤ - القدرة علىٰ تقدير المسافات بين الأشياء في حركتها وسكونها.

رابعاً: المخ:

يُعد مخ الإنسان من أكثر الأعضاء تعقيداً وتركيباً وهو من الناحية الكمية والكيفية أو النوعية متميز تماماً عن مخ سائر الحيوانات بما فيه الغوريلا والشمبانزي؛ إذ يبلغ متوسط حجم المخ عند الإنسان ١٣٠٠ سم^{3} بينما يبلغ متوسط حجم المخ عند الغوريل ٤٥٠ سم^{3}، أي إن حجم مخ الإنسان يصل إلى ثلاثة أضعاف حجم مخ الغوريلا مع أنّ الأخيرة يزن جسدها ثلاثة أضعاف وزن الإنسان[١٠].

وهناك اختلافات جوهرية بين جمجمة الإنسان وجمجمة الحيوان. فالجمجمة عند الإنسان مستديرة وأكثر اتساعاً وعمقاً بينما جمجمة الحيوان (القردة) تميل إلىٰ الاستطالة والضيق كما إنها تكون

مفلطحة وليست عميقة. جبهة الإنسان عريضة وتميل إلىٰ البروز بينما جبهة الحيوان ضيقة جداً وتميل إلىٰ الانحسار إلىٰ الخلف وذلك لانخفاض تجويف الجمجمة. وترتبط بهذه السمات خصائص أخرىٰ مثل غلظة عظام الحاجبين وغلظة الفك عند الغوريلا بالإضافة إلىٰ انخفاض المنطقة أعلى الأنف انخفاضاً ملحوظاً عند ذلك الحيوان. أما الإنسان فإنه يتميز برقة عظام الحاجبين، وكذلك عظام الفك تكون رقيقة وغير بارزة. كما أنّ الشكل الذي تنتظم فيه الأسنان عند الإنسان يشبه القوس بينما عند الحيوان يشبه الشكل المستطيل.

أنياب الإنسان أصغر من أنياب الحيوان أو القردة، وكذلك القواطع، وهي في تركيبها العام تجعل من الفم أقل حجماً وأقل اتساعاً من فم الحيوان أو القردة. هذا بالإضافة إلىٰ بروز الذقن عند الإنسان بينما تختفي عند الحيوان (انظر شكل ٦). ويتألف مخ الإنسان من اللحاء والقشرة التي تحيط بباقي أجزاء المخ ثم النصف الأيمن والنصف الأيسر من المخ، والمخيخ المتصل بالنخاع الشوكي.

واللحاء أو قشرة المخ عبارة عن طبقة رمادية اللون رفيعة جداً ومجعدة وتمثل ٨٠٪ من حجم المخ البشري، وهي مضغوطة بداخل الرأس ويمكن أن تأخذ حجم صفحة جريدة من الحجم الكبير إذ ما استوت أو فردت. ويتميز الإنسان عن الحيوان بتعقد تركيب هذه القشرة أو اللحاء الذي يعمل علىٰ ربط الخبرات والذكريات الماضية بالموضوعات والمشكلات الحاضرة كما يقوم باستنتاج علاقات جديدة من أحداث مختلفة ومستقلة بعضها عن البعض الآخر، أو لا توجد بينها رابطة، واكتشاف العلاقات الجديدة بين الأحداث أو الظواهر تميز المخ البشري عن مخ الحيوان الذي يكون محكوماً في استجابته للمثيرات الخارجية بأنماط غريزية فطرية لا شعورية مطبوعة في المخ بشكل ثابت وتكون مشتركة بين أفراد نوع حيواني معين. فمخ الإنسان

قادر علىٰ اختيار واستجابة معينة إزاء مثير خارجي معين ويمكن له تعديل استجابته أو التفكير في استجابة أخرىٰ.

وبين الخصائص المميزة لمخ الإنسان هي أنه يتألف من قسمين أو نصفين متشابهين من حيث الشكل لكنهما مختلفين من حيث الوظائف. ومع أنّ تكوين المخ لدىٰ الحيوانات يتبع نفس التقسيم (نصف أيمن ونصف أيسر) إلا إن مخ الإنسان يختلف تماماً من حيث الوظائف وخاصة فيما يتعلق بمراكز الكلام وبعض القدرات الأخرىٰ. ويقوم نصف المخ الأيمن بالتفكير الحدسي وإدارك العلاقات المكانية وأشكال الأشياء والتعرف علىٰ التشابهات والاختلافات بين الموضوعات، وكذلك معرفة الأنماط المختلفة من المكان أو الحيز أو الفراغ، وبالإضافة إلىٰ ذلك فإنه يتحكم في النصف الأيسر من الجسد البشري. ويقوم النصف الأيسر من المخ بتنظيم وإنتاج التصورات والأفكار المجردة والمتسقة، كما أنه مركز الكلام أو اللغة، ويتحكم في النصف الأيمن من جسد الإنسان، وبالرغم من حقيقة أنّ أمخاخ جميع الحيوانات الفقارية مركبة علىٰ نفس النموذج فإن مخ الإنسان وحدة يتصف بتخصص وظائف معينة ترتبط بكل نصف من النصفين المؤلفين له دون خلط بين تلك الوظائف[١١].

خامساً: اللغة:

ترتبط اللغة ارتباطاً قوياً بالمخ البشري وكذلك بالمجتمع والثقافة وهي لذلك تعد من أكثر الخصائص التي تميز الإنسان عن الحيوان. وبالرغم من وجود أشكال متنوعة من أنماط الاتصال المتمثلة في الإشارات والأصوات والحركات الجسدية التي توجد بين الكائنات الحية وأيضاً لدىٰ الإنسان، فإن اللغة أو القدرة علىٰ الكلام تعد سمة وميزة ينفرد بها الإنسان بشكل مطلق.

واللغة عبارة عن مخزون من الأصوات ذات دلالات ومعانٍ

معينة محددة تتجمع في شكل لا نهائي من الكلمات والعبارات والجمل التي تعبر عن حقائق وأفكار معقدة. وتعتمد اللغة على الرموز إذ إنّ الكلمات ذاتها عبارة عن أصوات تشير إلى معاني معينة أو هي أصوات اتفق أفراد مجتمع معين على إعطائها دلالات محددة، وهي بذلك تشترك في خاصية الرمز من حيث إنها حاملات للمعاني والتصورات. واللغة بهذا المفهوم ترتبط بالتفكير المجرد الذي يقوم به الإنسان معتمداً على التركيب المعقد للمخ أو على مراكز الكلام، على عكس الحيوان (أو الشمبانزي) غير القادر على التفكير المجرد أو إدراك الرموز.

وبالرغم من أنّ بعض الطيور والحيوانات مثل الببغاء والقردة على سبيل المثال تستطيع تكرار كلمات معينة بعد تدريبها، فإن ذلك لا يعني أنها تفهم معاني تلك الكلمات أو تستخدمها بالصورة التي يفهمها الإنسان، فتلك الحيوانات لا تستطيع أن تصنع جملة مفيدة أو التعبير عن معنى واحد بعبارات أو كلمات[١٢].

ومع أنّ القدرة على الكلام تستند إلى حقيقة بيولوجية نظرية عند الإنسان متمثلاً في مخه، فإن الإنسان لا يولد وهو ملم أو يتكلم لغة معينة بل إنه يكتسبها ويتعلمها من خلال البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها. كما أن الإنسان قادر على تعلم أكثر من لغة إما بالتعلم أو من خلال الاحتكاك المباشر أو العيش مع أفراد المجتمع الذين يتكلمون لغة غير اللغة الأصلية التي يتحدث بها.

ومن أهم الخصائص للغة هي أنها غير مقيدة بشروط أو حدود معينة مثلما هو الحال في صيحات الحيوانات الثابتة والغريزية. فلغة الإنسان حرة وإبداعية بمعنى أنّ الإنسان يستطيع أن يضيف عبارات جديدة لم تستخدم من قبل كي يعبر عن أفكار معينة أو أفكار جديدة بينما لا يستطيع أن يفعل ذلك أذكى الحيوانات.

وتتميز اللغة بالاختصار أو الإيجاز بمعنى أنه يمكن التعبير عن أفكار معينة في كلمات وجيزة مقتضبة كما أنّ اللغة وسيلة هامة من وسائل الاتصال ونقل المعلومات، إذ يستطيع الفرد أن ينقل معلومات تنتمي إلى أزمنة قديمة ماضية وأماكن بعيدة بفضل قدرته على تخزين المعلومات والتعبير عنها في اللغة. فاللغة تهيء الإنسان لأن يتخطى الحدود الطبيعية البيولوجية أو الغريزية وأن يبتكر ويبدع التراث أو الثقافة وينقلها من جيل إلى جيل.

وبالإضافة إلى الخصائص البيولوجية المتمثلة في قدرة المخ الإنساني واستعداده الطبيعي للكلام، فإنّ الإنسان يتميز بخصائص تشريحية في المناطق والأجزاء التي تقوم بالفعل بوظيفة الكلام وهي الحنجرة والأحبال الصوتية. فالحنجرة عند الإنسان وكذلك الأحبال الصوتية مُهيئة لإصدار أصوات متنوعة وأخرى في غاية التعقيد والتركيب مثل حروف العلة أو الحروف المتحركة والتي لا يستطيع الحيوان أن ينطق بها وذلك لاختلاف تركيب الحنجرة والأحبال الصوتية[١٣].

ومن خلال استخدام اللغة توصل الإنسان إلى تحديد أسماء معينة للأشياء وصنفها تصنيفاً يسمح له بإدراكها بشكل ميسر وسريع. فالإنسان يستطيع أن يحدد نوع معين من الفاكهة كالبرتقال على سبيل المثال، ويسميه بذلك الاسم ويحدد أسماء أخرى كثيرة لأنواع وأصناف مختلفة منه. وهذه الخاصية تنعدم تماماً عند الكائنات الأخرى.

إنّ اللغة من أهم أشكال التعبير عند الإنسان والتي تعبر ليس فقط عن مشاعره وانفعالاته وأفكاره وأيضاً عن موقفه نحو البيئة والمجتمع والعالم الإعجازي. فاللغة بحق تعد من أهم السمات التي ميز بها الله سبحانه وتعالى الإنسان عن سائر المخلوقات: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ صدق الله العظيم.

السلالات البشرية

حظيٰ موضوع «الأعراق» أو السلالات البشرية باهتمام بالغ في أوساط الدوائر الأنثروبولوجية، وظل محفوفاً بقدر من الغموض ومحاطاً بمفاهيم غير علمية ذات دلالات اجتماعية وفكرية في غاية السلبية. وتجدر الإشارة إلىٰ أنّ تلك المفاهيم السلبية والخاطئة لم تأتِ من دائرة الاهتمام «الأكاديمي» ولا من المفهوم العلمي الصحيح لهذا العلم الذي تهدف منطلقاته الرئيسة إلىٰ فهم الإنسان واحترام إنسانيته. فلقد كانت هذه المفاهيم وليدة ظروف اقتصادية وسياسية معينة، كما صدرت عن قطاعات اجتماعية محددة. وبالتالي يمكن تفسيرها في إطار تلك الظروف وليس من منطلق الفهم العلمي لمصطلح «العرق». ومن المؤسف أنّ هذه المفاهيم مهدت لأفكار عنصرية تثير نعرات الاختلاف والتشتت، وعليه فهي تتنافىٰ مع فلسفة «علم الإنسان» والهدف من دراسته.

وبسبب الغموض والإبهام والنظرة السلبية التي ارتبطت بكلمة «أعراق» Races رفض بعض علماء الأنثروبولوجيا فكرة «العرق» كحقيقة علمية، بينما قبل البعض الآخر الفكرة، ولكنهم رفضوا استخدام كلمة «عرق» كمصطلح علمي. ومن بينهم من نادىٰ باستخدام مصطلح الجماعات السلالية أو الجماعات «الأثنية» Ethnic Groups كبديل لكلمة «أعراق» Races. ومن بين الأفكار التي وردت في هذا الصدد أنّ «العرق لا يشكل حقيقة علمية»، وأنّ «مصطلح عرق مصطلح عتيق وبعيد عن المنطق». وأنّ «مفهوم العرق لدىٰ

الإنسان العادي مشوش وبعيد عن المنطق». وأنّ «مفهوم العرق لدىٰ الإنسان العادي مشوش وممزوج بالعواطف»[١٤].

وأما مصطلح «الجماعة السلالية» أو «الجماعة الأثنية» الذي اقترح كبديل لكلمة «عرق» فلقد أصبح أكثر استخداماً في الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة. وهو مشتق من الكلمة الإغريقية ethnos التي «تعني في الأصل عدداً من الناس يعيشون معاً، ثم صارت تستعمل بمعنىٰ قبيلة أو جماعة أو أمّة أو شعب، وفي العصور الحديثة صارت كلمة سلالي ethnic تستعمل من حين إلىٰ آخر للإشارة إلىٰ جماعة بشرية تتميز بروابط عرقية ووطنية خاصة»[١٥]. ولقد رأىٰ بعض علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا ضرورة الفصل بين السلالة و «الأثنية» لعدّة أسباب من بينها: «أنّ السلالة تركز أساساً علىٰ الجوانب الطبيعية (البيولوجية) بينما تركز «الأثنية» علىٰ الخصائص المبنية علىٰ الثقافة. وبالإضافة لذلك قد توجد مجموعات أثنية متعددة في إطار نوع طبيعي أو سلالة واحدة. وعلىٰ ذلك فإن جميع من ينتمون إلىٰ نفس السلالة قد لا يؤمنون بنفس الديانة، أو يتكلمون نفس اللغة، أو يتبعون نفس نظام الحياة. ولقد قُصد من استخدام مصطلح «الجماعة السلالية» أو «الجماعة الأثنية» كبديل لكلمة «عرق» البعد عن التحيز البيولوجي وللتأكيد علىٰ المرونة البشرية وغلبة الجانب الثقافي»[١٦].

يكاد يجمع علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية علىٰ تقسيم البشر إلىٰ ثلاثة عناصر أو ثلاث جماعات سلالية رئيسة وهي:

١ ـ المنغوليون.

٢ ـ الزنوج.

٣ ـ القوقازيون.

وتنقسم هذه الجماعات الرئيسة بدورها إلىٰ جماعات فرعية تحمل نفس خصائص الجماعات الرئيسة بدرجات متفاوتة. ولقد اعتمد تصنيف الأجناس البشرية إلىٰ تلك العناصر الثلاثة علىٰ السمات

الجسمية الخارجية للإنسان كالحجم والطول وملامح الوجه ولون البشرة ولون وشكل الشعر إلخ. وليس هناك ما يؤكد أنّ الشكل الحالي لتلك الجماعات السلالية هو ما كانت عليه في الماضي، كما أنه ليس هناك من يدعي أنها ستبقىٰ علىٰ شكلها الحالي في المستقبل. ولعل من بين السمات البارزة لكل واحدة من هذه الجماعات السلالية التفاوت في خصائصها الجسمية والانتشار الواسع عبر أقطار العالم، بل عبر القارات.

المنغوليون:

ويعرفون كذلك بالجنس الأصفر أو الصُفر؛ وذلك لأن لون بشرتهم يميل إلىٰ اللون الأصفر. تتفاوت ألوانهم من زعفراني إلىٰ بني أصفر. قاماتهم بين معتدلة الطول إلىٰ معتدلة القصر. تتميز أعينهم بثنية جلدية شائعة لدىٰ معظمهم (انظر شكل ٧ ج) أنوفهم متوسطة العرض وقصبتها منخفضة إلىٰ معتدلة ويتميز شعر الرأس باللون الأسود والاسترسال وعدم التجعيد. ويسكن أغلبهم في شمالي آسيا وآسيا الوسطىٰ وجنوب شرقي آسيا. وتمتد بعض أفرع المنغوليين إلىٰ الأمريكتين. فالهنود الأمريكيون والأسكيمو من بين الجماعات السلالية المنتمية إلىٰ هذه المجموعة.

الزنوج:

ويعرفون كذلك بالجنس الأسود أو السود، نسبة لسواد بشرتهم التي تتفاوت من البني إلىٰ الأسود، وتتفاوت قاماتهم من طويل جداً، كما هو الحال بين الدينكا والنوبر من القبائل النيلية، إلىٰ قصير جداً بين أقزام الكنغو. شكل الأنف لديهم متوسط العرض إلىٰ عريض جداً وفتحات الأنف واسعة ويتصفون كذلك ببروز شديد في الفكين؛ كما أنّ شعر الرأس لديهم نسيجه خشن، وأما شعر الجسم فقليل الكثافة لدىٰ معظمهم (انظر شكل ٧ أ) وتشتمل هذه المجموعة علىٰ جماعات سلالية متعددة تمتد حول العالم في أفريقيا وبعض أجزاء

آسيا وأستراليا وجزر المحيط؛ ومن بين أقسامها زنوج أفريقيا، وزنوج المحيط، والأقزام الأفارقة، والأقزام الأسيويون، وأقزام المحيط. ومن البديهي أنّ الخصائص الجسمية للسلالات الفرعية المنتمية لهذه المجموعة تتفاوت بتفاوت البيئات المختلفة التي يعيشون فيها.

القوقازيون:

ويعرفون بالجنس الأبيض أو البيض نسبة لبياض بشرتهم والتي تتراوح بين الأبيض الفاتح إلىٰ الاللون الغامق الذي يصل أحياناً إلىٰ اللون البني. وينقسمون إلىٰ قسمين كبيرين هما الأوروبيون الذين يعيشون شمال حوض البحر المتوسط والقوقازيون الذي يتمركزون جنوب البحر المتوسط ويمتدون إلىٰ شبه القارة الهندية.

ويتميز القسم الأول بالبشرة البيضاء المشوبة بحمرة، والعيون ذات اللون الفاتح أو الأزرق، والشعر الأشقر أو البني الفاتح والتموج. وتتميز الشفتان بأنهما رفيعتان ولا تمتدان إلىٰ الأمام، (انظر شكل ٧ ب). وتنطبق هذه الخصائص علىٰ القوقازيين الذين يعيشون جنوب البحر المتوسط مع وجود فوارق تتمثل في أنّ البشرة تكون داكنة والشعر أكثر تموجاً ولونه يكون غامقاً أو داكناً كما أنّ لون العينين يكون بنياً.

وبعض الخصائص المشتركة بين القوقازيين من القسمين تتمثل في أنّ الرأس تكون عريضة ويميل الوجه إلىٰ الشكل البيضاوي، والعينان بيضاويتان أيضاً، والقامة طويلة. ويعتبر القوقازيون من أكثر الأجناس انتشاراً وعدداً.

إعلان اليونسكو عن «العرق»:

نسبة للغموض والتشويش الذي اكتنف مفهوم «العرق» وما أحيط به من ظلال تخرج به عن دائرة معناه العلمي، وتباعد بينه وبين

الهدف السامي للدراسات الأنثروبولوجية، وأملاً في التوصل إلىٰ رؤية واضحة حول هذا الموضوع، كونت اليونسكو لجنة من أهل العلم والاختصاص لدراسة كل الجوانب المتصلة بموضوع «العرق» وإصدار بيان بشأنه. ولقد جاء تكوين هذه اللجنة بناء علىٰ توصية من المؤتمر العام الرابع لليونسكو، وضمنت في عضويتها كوكبة من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس من المرموقين المشهود لهم بالمعرفة والكفاءة. وبعد التوصل إلىٰ الشكل الأولي للبيان أرسلت مسودته لعدد من العلماء والمختصين في علوم الوراثة والبيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا لاستطلاع آرائهم عن الموضوع. وبعد ذلك صدر البيان الأول لليونسكو عن «العرق» في باريس في عام ١٩٥٠ م. ثم توالت بيانات اليونسكو عن ذات الموضوع حيث صدر البيان الثاني في باريس في عام ١٩٥١ م، ثم أعقبه البيان الثالث في موسكو في عام ١٩٦٤ م فالبيان الرابع في باريس في عام ١٩٦٧. علىٰ الرغم من إجراء بعض التعديلات علىٰ البيان الأول، وإشراك العديد من العلماء في التخصصات المختلفة استكمالاً لشكله العلمي الأمثل، ظلّ بيان اليونسكو الأول حول «العرق» هو الأساس للفهم العلمي الصحيح لموضوع الأعراق وما يتصل بها من أفكار ومفاهيم. وعليه، فإننا نركز عليه في عرض ومناقشة السلالات البشرية.

يلخص إشيلي مونتاغيو النقاط الرئيسة الواردة في هذا البيان في خمسة عشرة نقطة. نورد أهم هذه النقاط في الفقرات التالية ونتناول بعضها في مناقشة موجزة. تتلخص تلك النقاط في التالي:

١ ـ الجنس البشري واحد، وكل الناس ينتمون إلىٰ النوع Homo المصطلح علىٰ تسميته بالإنسان العاقل أو الإنسان المدرك Sapiens والفوارق القائمة بين الجماعات البشرية المختلفة نتجت عن عدة عوامل من بينها الانعزال والتحول والتبدلات التي تطرأ علىٰ بنية المورثات genes والتهجين... ونشأت بهذه الطريقة جماعات بدرجات

مختلفة من الاستقرار والتمايز. وصنفت هذه الجماعات بأساليب مختلفة من أجل أهداف محددة.

٢ ـ ينقسم الجنس البشري إلىٰ عدد من الجماعات البشرية التي تختلف وفقاً لوجود مورثة أو أكثر. وهذه المورثة أو المورثات هي المسؤولة عن نوع الاختلاف بين هذه الجماعات ودرجته، إلا إن ما يربط بين الجماعات المختلفة وما يؤلف بينها من مورثات أكثر مما يفرق بينها. وعليه فأوجه الشبه أكثر من أوجه الاختلاف.

٣ ـ عبارة «عرق» Race ترمز إلىٰ قطاع سكاني يتميز ببعض التركيزات في المورثات أو العينات البدنية بسبب تواترها وتوزعها. وينتج هذا التمايز بفعل العزلة الجغرافية أو الثقافية أو كلتيهما. وهذه القطاعات السكانية قادرة علىٰ أن تتحول، وقد تختفي بمرور الزمان.

٤ ـ يستعمل أغلب الناس عبارة «عرق» استعمالاً يفتقر للدقة، فيطلقونها علىٰ جماعات ترتبط بروابط لغوية أو دينية أو جغرافية. ومن أمثلة ذلك اعتبار اليهود أو المسلمين أو العرب أو الفرنسيين أو الهنود مجموعات عرقية، مع أنه ليست هناك أية علاقات وراثية مثبتة بطريقة علمية تربط بين الخصائص العرقية والسمات الثقافية لتلك الجماعات. وعليه فمن الأفضل إسقاط كلمة «عرق» والاستعاضة عنها بمصطلح الجماعات السلالية أو الجماعات «الأثنية» Ethnic Groups.

٥ ـ يتفق معظم علماء الأنثروبولوجيا في الوقت الحاضر علىٰ تصنيف النوع البشري إلىٰ ثلاثة أقسام رئيسة هي: المنغوليون والزنوج والقوقازيون. ولكن ليس هناك اتفاق واضح علىٰ عدد الجماعات الفرعية المنضوية تحت تلك الأقسام الرئيسة، أو علىٰ خصائصها بالتحديد.

٦ ـ ليست هناك صلة واضحة بين الخصائص البيولوجية والسمات الذهنية لتلك الجماعات. وعلماء الأنثروبولوجيا لا يدخلون السمات الذهنية ضمن تصنيفاتهم للإنسان. فالذكاء والقدرات لا

تخضع لخصائص فطرية فحسب، إذ تتفاوت بين فرد وآخر وتخضع لمؤثرات البيئة والتعليم والتنشئة الاجتماعية؛ كما أنها تتأثر بغرض التدريب وإمكاناته التي تختلف بدورها من مجتمع لآخر. وعليه فليس هناك ما يبرر اعتبار الفوارق السلالية الموروثة عاملاً أساسياً في اختلاف المستويات الثقافية بين الشعوب أو ما تحققه من إنجازات تقانية، فمن أهم خصائص الإنسان العاقل المرونة والقابلية للتعلم.

٧ ـ ليست هناك فوارق فطرية في الطبع أو المزاج أو الشخصية تميز سلالة معينة عن السلالات الأخرىٰ، أو يكتسبها الفرد بحكم انتمائه إلىٰ هذه السلالة أو تلك.

٨ ـ الامتزاج بين الجماعات السلالية المختلفة كان ـ وما زال ـ يحدث منذ أقدم العصور وبدرجات متفاوتة. وعليه فليس هناك عنصر نقي أو «عرق» نقي Pure Race وما يتصل بهذا الأمر هو عبارة عن أسطورة اجتماعية، أكثر منها حقيقة علمية. والتهجين عملية هامة تتصل بتشكيل «العرق» وامتصاصه وليس هناك ما يدل علىٰ الامتزاج العرقي في حد ذاته يأتي بنتائج رديئة من الناحية البيولوجية.

٩ ـ ولدت أسطورة «العرق» أضراراً بليغة علىٰ المستوىٰ الاجتماعي والإنساني، ومهدت لبعض أشكال التمييز العنصري، وحرمت البشرية من شتىٰ أشكال التعاون السياسي والاقتصادي؛ علماً بأنّ الإنسان يولد بدوافع تعاونية يمكن استغلالها لتقدم البشرية ورفاهيتها[١٧].

أثر البيئة والمناخ الاجتماعي والسياسي علىٰ السلالات:

لا شكّ أنّ الأفكار التي وردت في هذا البيان، بل في البيانات المتلاحقة عن موضوع «العرق» جديرة بالمناقشة وبالوقفة المتأنية. نتناول في الفقرات التالية بعض المعالم الهامة التي تناولها هذا البيان، وما يترتب عليها من محاولات لتوضيح خطل بعض الآراء المتصلة

بموضوع «العرق» مثل الأفكار الخاطئة التي تزعم تفوق البيض علىٰ باقي السلالات، وما صاحب ذلك من قهر لبعض الشعوب وحرمانها من المساواة. كما ننوه لبعض ما توصلت إليه الدراسات السابقة عن ضرورة إحلال أحداث التاريخ وظواهر البيئة والمجتمع في محلها الطبيعي من أجل الوصول إلىٰ رؤية حضارية متكاملة عن «الأعراق» والدلالات الاجتماعية والفكرية المترتبة عليها. فبالإضافة للجوانب البيولوجية الصرفة عن السلالات، هناك بعض العوامل الخارجية التي لا تدخل في صميم «العرق». تؤثر هذه العوامل الخارجية ـ إن جازت لنا تسميتها ـ في تكوين «العرق». أو تهجينه، أو انطفائه؛ كما تؤثر في إعادة صياغة التكوينات السلالية، وفي بعض المفاهيم السائدة عن السلالات المختلفة. ومن بين تلك العوامل ما يلي:

١ ـ البيئة الطبيعية:

أ ـ المناخ.

ب ـ التغذية (المعطيات الغذائية للبيئة الطبيعية).

٢ ـ البيئة الاجتماعية ـ الاقتصادية.

أ ـ التكوين السكاني.

ب ـ العادات والتقاليد.

جـ ـ الأوضاع الاقتصادية والمستوىٰ الاجتماعي.

٣ ـ المفاهيم السياسية

أثبتت الدراسات التي قام بها بعض علماء الأنثروبولوجيا من أمثال بواس Boas وباولز Bowles وغيرهما أنّ الجسم البشري يتسم بالمرونة، وأنّ الخصائص السلالية قابلة للتغير وفقاً لتأثيرات البيئة، ولقد انعكست هذه التغيرات علىٰ بعض الخصائص التي كانت تعتبر من الثوابت السلالية مثل الحجم وطول القامة، كما اتضح أنّ هذا التغير يزداد بتقادم الأجيال. أظهرت هذه الحقائق الأبحاث التي

أجريت على سلالات الأمريكيين الذين ينتمون لأصول أوروبية أو صينية أو يابانية. يشير رالف لنتون إلى أثر العوامل التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة على التغيرات السلالية، ويضيف إليها بعض العوامل الأخرى التي اكتسبت أهمية خاصة في الآونة الأخيرة مثل ارتفاع مستوى المعيشة وتقدم المعرفة الطبية(١٨).

١ ـ البيئة الطبيعية:

أ ـ المناخ:

أشارت العديد من الدراسات إلى تأثير المناخ على بعض الخصائص الجسمية للجماعات السلالية؛ ومن أمثلة ذلك أنّ شكل الأنف يعتبر سمة تكيفية مع البيئة، لا سيما مع نوع المناخ السائد في تلك البيئة. فشكل الأنف «المفلطح» ذي المنخرين الواسعين الذي يميز السلالات الزنجية التي تعيش في المناطق الحارة يسمح باستنشاق أكبر كمية من الهواء إلى جسم الإنسان، فالمرء يحتاج لعملية تبريد سريعة في ذلك الجو الحار. وعليه فالطفل الذي يولد بالخصائص الجسمية الملائمة للبيئة التي يولد فيها يكون أكثر قدرة على التكيف وأكثر حظاً في العيش والبقاء، وبمرور الزمن يصبح المتلاءمون مع بيئتهم هم المرشحين للتناسل والتكاثر. ومن الأمثلة الأخرى أثر الضوء «الأشعة فوق البنفسجية» على لون البشرة، وذلك من خلال تأثير تلك الأشعة على تكوين صبغة الملانين Melanin، وبالتالي على اكتساب البشرة ذات اللون الأسود. وإذا تطابق وجود هاتين السمتين المميزتين للسلالة (أي اتساع المنخرين وسواد البشرة) عند شخص ما وبذلك اعتبرناه زنجياً؛ فمعنى ذلك أنّ وجود الزنوج في المناطق التي يغلب عليها المناخ الحار ذو الشمس الساطعة هو السبب المباشر الذي نتجت عنه تلك السمات البيولوجية. ومن هنا تتضح الصلة المباشرة بين البيئة الطبيعية والجغرافية والخصائص السلالية.

ب ـ التغذية:

يؤثر النوع السائد من التغذية المتوفرة بين الجماعات السكانية المختلفة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، على الخصائص الجسمية لتلك الجماعات. ومن أمثلة ذلك ما يتصل بأثر الغدد الصماء على النمو، ومدى انعكاس ذلك على الطول أو السمنة أو النحافة. فعلى سبيل المثال، نجد أنّ نشاط الغدة الدرقية أو خمولها، وما يترتب على ذلك من ارتفاع نسبة «اليود» في الجسم أو انخفاضها، يؤثر بصورة مباشرة على الإنسان، ويتوفر «اليود» في الغذاء الذي يتكون من الأسماك، التي توجد بدورها في البيئات البحرية والساحلية. يوضح هذا المثال تداخل العناصر المختلفة وما يترتب عليها من آثار. فالبيئة الساحلية والبحرية تنتج نوعاً من الغذاء يعتمد على الأسماك بصورة كلية أو شبه كلية، وتؤثر التغذية على الخصائص البيولوجية «الخصائص الجسمية الداخلية» التي تنعكس في طبيعة الهرمونات التي يفرزها جسم الإنسان، كما تؤثر هذه الهرمونات بدورها على الخصائص الجسمية الخارجية للجماعات السكانية.

ومن أجل فهم ما أشرنا إليه من حيث أثر التغذية المتاحة على الخصائص الجسمية للجماعات السلالية، ينبغي أن ندرك حقيقة هامة وهي أنّ السلالات نشأت أصلاً نتيجة للعزلة الجغرافية والسكانية في المجتمعات القديمة، فتلك المجتمعات لم تنعم بالتقدم الحضاري والثقافي الذي حظيت به المجتمعات الحديثة، والذي يجعل نقل السلع وجميع المواد الغذائية من والى المناطق الجغرافية والمناخية المختلفة أمراً ميسوراً. ففي استطاعة المجتمعات الحديثة أن تنعم بالمنتجات الغذائية التي لا تتاح في بيئاتها المحلية، والتي تأتيها من الخارج بفضل وسائل النقل الحديثة. وعليه فالتغذية المتوازنة balanced diet التي صارت أمراً مطلوباً وسهل المنال في المجتمعات الحديثة، لم تكن متوفرة في أغلب المجتمعات التقليدية المعزولة عن بعضها.

٢ ـ البيئة الاجتماعية ـ الاقتصادية:

أ ـ التكوين السكاني:

يرتبط التكوين السكاني لأي منطقة بالبيئة الطبيعية والجغرافية، إلا إنه يتأثر إلىٰ حد كبير بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية. نشير هنا في شيء من الإيجاز إلىٰ بعض تلك العوامل التي أثرت علىٰ تكوين الجماعات السكانية، وعلىٰ التغير الذي طرأ عليها وعلىٰ مقدرتها علىٰ التكيف. فعملية الثبات النسبي في الخصائص السلالية تتغير بمجرد كسر دائرة العزلة؛ علماً بأن العزلة هي التي تسببت في تكريس الخصائص السلالية في المقام الأول. كما يلعب الاختلاط السلالي والتهجين دوراً هاماً في تلك العملية، ومن بين الأحداث التاريخية التي أدت إلىٰ عملية تهجين «سلالي» علىٰ نطاق واسع الفتوحات الإسلامية، وما أعقبها من استيطان وتزاوج. فلقد أسهمت في تقريب الشقة بين الجماعات السكانية المنتمية للسلالات المختلفة، كما نجحت في التمهيد لعملية تهجين سلالي وثقافي علىٰ نطاق واسع. ومن بين المجتمعات التي يتخذ فيها التكوين السكاني أشكالاً سلالية مهجنة سكان السواحل والجزر الساحلية. وبما أنّ المجتمعات الحديثة في عالمنا المعاصر تتميز بسهولة التنقل والأسفار، وازدياد رقعة الاستيطان والتهجير، وازدهار السياحة، فإن فرص الاختلاط السكاني والتهجين السلالي تزداد في كل يوم.

ب ـ العادات والتقاليد:

العادات والتقاليد السائدة في المجتمعات المختلفة، لا سيما ما يتصل منها بنظم الزواج وبالأعراف التي تحكم أشكاله، من بين العوامل الهامة التي تؤثر في تكريس «السلالة» أو تذويبها وضمورها، أو حتىٰ اتجاهها نحو الانقراض. فأشكال الزواج المعروفة في المجتمعات البشرية المختلفة سواء كانت تتبع لنظام الزواج القرابي (الزواج الداخلي) Endogamous Marriage أو الزواج الاغترابي (الزواج

الخارجي) Exogamous Marriage تؤثر علىٰ الخصائص السلالية علىٰ المدىٰ البعيد وبشكل تدريجي.

ج ـ الأوضاع الاقتصادية والمستوىٰ الاجتماعي:

تلعب الأوضاع الاقتصادية والمستويات الاجتماعية المتباينة للجماعات السكانية المختلفة أدواراً هامة في بلورة المفاهيم المتصلة بموضوع «السلالة»؛ فمثلاً في المجتمعات التي يسود فيها التفاوت الاقتصادي وانعكاساته علىٰ السكن، وفرص التعليم، والتوظيف تتصف نظرة الشرائح الاجتماعية المختلفة للفئات المحرومة اقتصادياً واجتماعياً بالسلبية. وكثيراً ما تضطر هذه الفئات المحرومة للقيام بأعمال وأشغال متدنية اجتماعياً تأتي في أدنىٰ درجات سلم العمالة ويتأفف الآخرون عن مزاولتها. وكثيراً ما تكون تلك الفئات من جنسيات أو جماعات سلالية معينة، كما يحدث في المدن الكبيرة حيث يكتظ السكان من أصول متعددة. وفي مثل هذا المناخ الاقتصادي والاجتماعي الذي حرم بعض الفئات من فرص المساواة، سادت بعض المفاهيم الخاطئة ألحقت بالسلالات التي تنتمي إليها تلك الفئات العديد من الصفات السلبية مثل الكسل، والميل إلىٰ العنف، وتدني القدرات الذهنية؛ علماً بأنه يصعب ـ إن لم يكن يستحيل ـ الربط بين تلك الصفات وبين فكرة «السلالة» من الناحية العلمية والبيولوجية.

ومن بين الأفكار الخاطئة التي سادت من غير سند علمي، المفاهيم المتصلة بسمو «الجنس الأبيض». ولقد ساعد علىٰ ترويج تلك الأفكار بعض الظواهر الاقتصادية والاجتماعية، والأحداث التاريخية، مثل التطور الاقتصادي الذي أحرزته البلاد التي يسكنها «البيض» بفضل تقدمها التقني وبفعل الثروات الهائلة التي جمعتها من خلال استغلالها للمستعمرات. ولكن يدحض تلك الآراء أنّ أعداداً غير يسيرة من «البيض» تعيش في مستويات اقتصادية واجتماعية متدنية، ولم يتيسر لها القدر الكافي من التقدم الفكري. كما أنّ التقدم

العلمي الذي أحرزته الشعوب «الصفراء» مثل اليابانيين، والمستويات المقدرة من التقدم الذي وصلت إليه بعض الشعوب «السوداء» تجعل الربط بين السلالة والتقدم الفكري والعلمي أمراً مرفوضاً وبعيداً عن المنطق.

٣ ـ المفاهيم السياسية:

توضح أحداث التاريخ أنّ مفهوم «السلالة» أُخضِع لنزعات عنصرية وسياسية، وتمّ استغلاله لخدمة أهداف «إيديولوجية» واستعمارية محددة. ومن بين تلك الاستخدامات ما نعرفه عن النازية والترويج لفكرة «الجنس الآري» وسموه وأحقيته للحكم والسيطرة. ومن الأمثلة الأخرىٰ لاستغلال مفهوم «السلالة» بعض الأفكار المتصلة بفلسفة الاستعمار، والتي سادت في القرون السابقة إبان الهجمة الاستعمارية علىٰ الشعوب المختلفة. ولعل أفضل مثال لتلك المفاهيم التي سعت لتبرير استعمار السلالة «البيضاء» للشعوب الأخرىٰ، الترويج لفكرة «مسؤولية الرجل الأبيض تجاه نشر الحضارة» بين الشعوب الأخرىٰ، أي ما عرف بـ The White Man's Civilizing Mission. ولقد عوملت هذه النزعات الاستعمارية المنطلقة من دوافع اقتصادية وسياسية، وكأنها واجب تبشيري مقدس تؤدية «سلالة» معينة نحو الشعوب الأخرىٰ.

السلالات البشرية في ضوء الإسلام:

تتضح نظرة الإسلام لموضوع «الأعراق» والسلالات من خلال القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ فهناك العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تبين موقف الإسلام من هذا الأمر. قد يضيق المجال عن حصر هذه الآيات والأحاديث. إلا إننا نورد أمثلة محدودة لها، نسبة لأهميتها. ومن خلال استعراض هذه الآيات والأحاديث وفهم معانيها ومدلولاتها، نجد أنّ الإسلام قد احتوىٰ علىٰ

الكثير من الأفكار والمفاهيم الصائبة عن السلالات البشرية وكيفية النظر إليها. كما نلاحظ أنّ بعض الأفكار الهامة والحديثة التي توصل إليها علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع، من مسلمين وغير مسلمين، لا تخرج عن دائرة ما ورد في تلك الآيات والأحاديث من مفاهيم نذكر منها ما يلي:

أ ـ التأكيد علىٰ وحدة الجنس البشري:

القرآن الكريم لا يفضل قوماً علىٰ قوم ولا سلالة علىٰ سلالة، ولاغرو فهو يخاطب المجتمع الإنساني قاطبة. يكاد الإسلام أن يتحاشىٰ الحديث عن السلالات، ولا يتعامل مع الناس علىٰ أنهم جماعات بشرية مختلفة ومنعزلة عن بعضها، بل يؤكد دائماً وحدة الجنس البشري؛ ففي ذلك مدعاة للمساواة بين الناس علىٰ اختلاف ألوانهم وأجناسهم. يتكرر هذا المعنىٰ في عدة آيات منها:

﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٩].

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾ [سورة هود: الآية ١١٨].

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة. ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون﴾ [سورة النحل: الآية ٩٣].

وأما في الحديث النبوي الشريف، فيدعو رسول الله ﷺ إلىٰ تجاوز الفوارق السلالية والأممية ويؤكد علىٰ ضرورة المساواة. وإن كانت هناك أية اختلافات تفرق بين المسلمين، فإنها تتوقف علىٰ قدر إيمانهم وتقواهم. ومن بين الأحاديث النبوية الشريفة التي تعكس هذا المعنىٰ قوله ﷺ «لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوىٰ».

أ ـ التأكيد علىٰ أهمية التعارف والتآلف:

الأصل في الإنسان هو الميل الفطري للاجتماع والتآلف؛

فالإنسان اجتماعي ومدني بطبعه. ولقد أشار إلىٰ هذا المفهوم الفلاسفة، وعلماء الاجتماع، وعلماء الأنثروبولوجيا وغيرهم؛ وذلك علىٰ اختلاف أزمانهم وأديانهم. أكدوا هذا المعنىٰ منفردين ومجتمعين. ولعلّ بيان اليونسكو عن «العرق» الذي عرضناه وناقشنا بعض تفصيلاته يمثل إجماع العلماء في عالمنا المعاصر علىٰ أهم الآراء المتصلة بهذا الموضوع. وأغلب ما ورد فيه لا يخرج عن إطار ما جاء من أفكار هامة نادىٰ بها الإسلام قبل أكثر من أربعة عشر قرناً. ومن بين تلك الأفكار يشير إلىٰ أنّ الإنسان اجتماعي بفطرته، وأنه مطبوع علىٰ التآلف والتعارف يتضح ذلك من مضمون الآية الكريم:

﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

الهوامش والمراجع

(١) منير البعلبكي، المورد، طبعة ٢٨ ص ٥٢، بيروت ـ دار العلم للملايين ١٩٩٤.

(٢) Also See Encyclopaedia Britannica. Inc, **The New Encyclopaedia**, Vol. 1, Chicago, 1991, p 446.

(٣) عبد القادر هاشم رمزي، **النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الاجتماعية ـ التربوية**، الدوحة، دار الثقافة، ص ص ٢١٨ ـ ٢٢٠.

(٤) Howells, William. **Getting Here**, Washington, Dc: The Compass Press. 1993 P. 49.

(٥) Howells, W. Cf. pp. 80 - 85.

(٦) Campbell, Bernard. **Human Kind Emerging. London: Scott, Foresman & Company. 1988. pp. 50 - 51.**

(٧) Campbell, B. Cf. p. 48.

(٨) Ibid, p. 48.

(٩) Ibid, p. 49.

(١٠) Ibid, p. 50.

(١١) بيتر فارب، **بنو الإنسان**، ترجمة زهير الكرمي، سلسلة المعرفة، الكويت.

(١٢) بيتر فارب، **بنو الإنسان**، مرجع سابق ص ١٤٠.

(١٣) بيتر فارب، **بنو الإنسان**، مرجع سابق ١٥١.

(١٤) بيتر فارب، **بنو الإنسان**، مرجع سابق ١٥٤.

(١٥) أشيلي مونتاغو، **الدحض العلمي لأسطورة التفوق العرقي** ترجمة المقدم حسن أحمد بسام، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨١، ص ص ٦٦ ـ ٦٧.

(١٦) نفس المصدر، ص ٧١.

(١٧) ت. ك. أومين «السلالة الأثنية والطبقة: دراسة تحليلية للعلاقات بينهما»، **المجلة الدولية الاجتماعية**، اليونسكو، فبراير ١٩٩٤، ص ١٢٥.

(١٨) عرضنا في الفقرات السابقة النقاط الأساسية في بيان اليونسكو عن «العرق»

وحاولنا اختصارها ووضعها بصورة مبسطة، كما دمجنا بعض النقاط المتشابهة وأعدنا ترتيب بعضها. ولقد اعتمدنا في ذلك على أشيلي مونتاغو، المصدر السابق.

(١٩) رالف لنتون، **الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث**، ترجمة عبد الملك الناشف، بيروت، ١٩٦٧، ص ص ٤٨ - ٤٩.

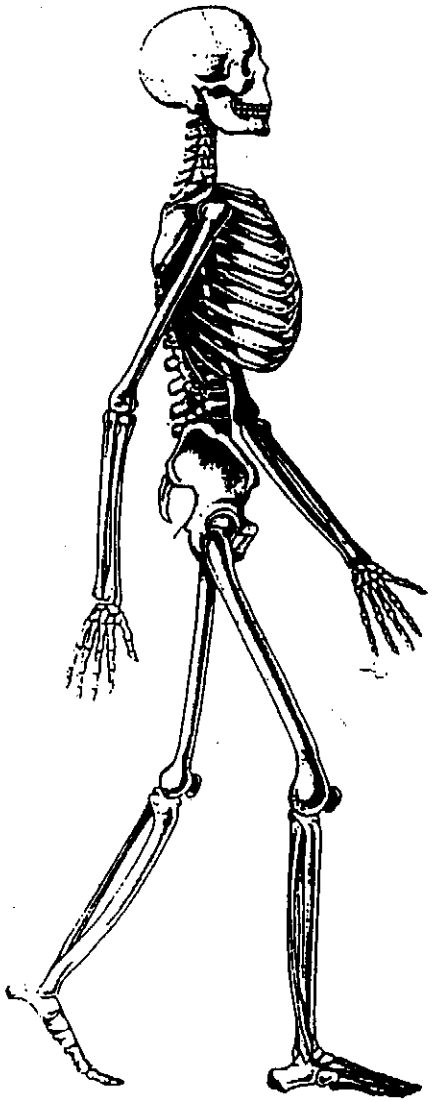

شكل رقم (١) هيكل عظمي للإنسان يظهر فيه بوضوح خاصية اعتدال القامة.

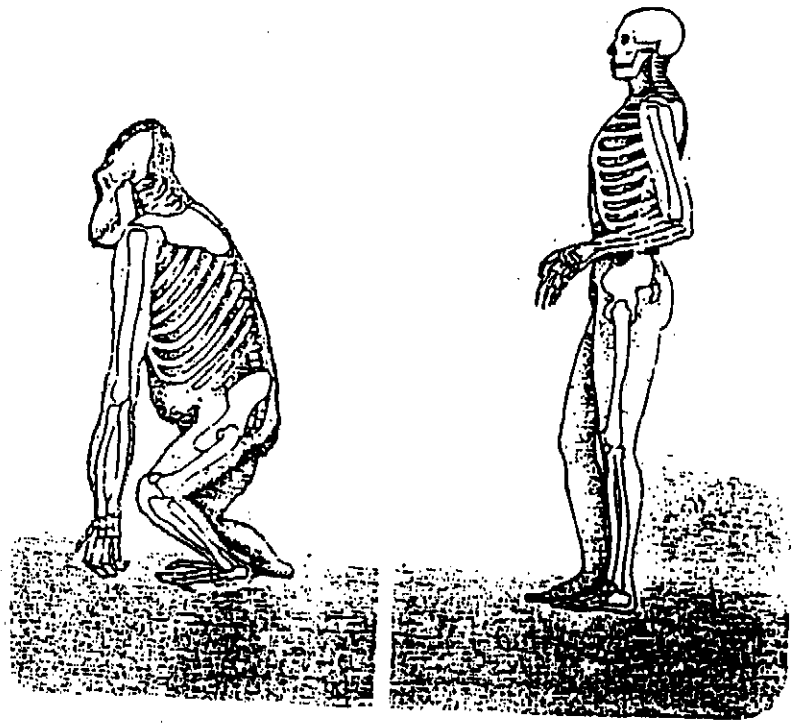

شكل رقم (٢) الهيكل العظمي عند الإنسان والهيكل العظمي عند القردة. لاحظ المقومات العضوية لاعتدال القامة عند الإنسان والفروق بين الهيكلين فيما يتعلق بوضع الرأس والعمود الفقري والقفص الصدري والعنق والحوض والفخذ والركبة والأقدام.

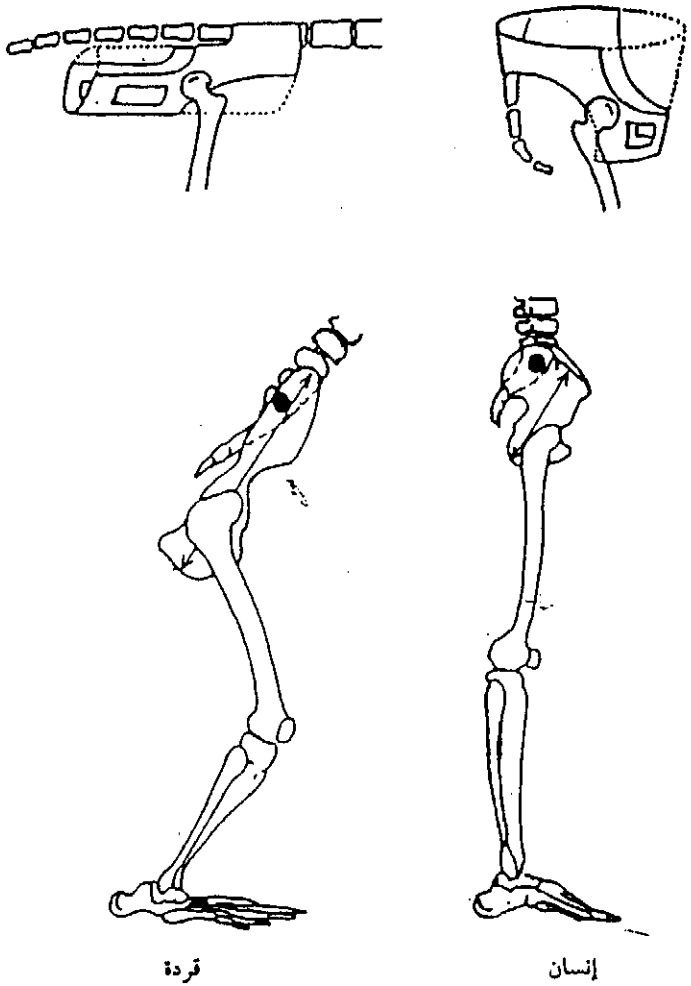

شكل رقم (٣) أسفل: يوضح اختلاف في تركيب الحوض بالتفصيل عند الإنسان وعند القردة كما يوضح أيضاً شكل عظام الفخذ والركبة والقدمين. أعلى: الفرق بين عظام حوض الإنسان وعظام أحد الحيوانات المستأنسة.

شكل رقم (٤) يوضح الاختلاف بين قدم الإنسان وقدم القردة.

شكل رقم (٥) يوضح الفرق بين يد الإنسان (أ) ويد القردة (ب).

شكل رقم (٦) يوضح الاختلف بين رأس (جمجمة) الإنسان ورأس (جمجمة) القرد

شكل ٧ يوضح الاختلاف بين السلالات

(أ) نموذج من سلالة زنجية.

(ب) نموذج من سلالة قافوزية.

(جـ) نموذج من سلالة منغولية.

الفصل الرابع

الاتجاهات والمدارس الأنثروبولوجية*

* من كتاب: (حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، العدد 98، 1986)

5 الأنثروبولوجيا وعالم القرن العشرين

ننتقل بقصتنا في هذا الفصل إلى النصف الأول من القرن العشرين، لنحكي فصلا جديدا ومثيرا من مراحل تكوين وتطوير الأنثروبولوجيا ككيان أكاديمي ومهنة متخصصة. ورغم أن الفكر الأنثروبولوجي قد ظل خلال العقدين الأولين من القرن العشرين متأثرا بالنظريات التي سادت وتبلورت إبان السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، إلا أنه سرعان ما تغير وتحول إلى منطلقات جديدة نتج عنها عدة اتجاهات إزاء دراسة الإنسان وحضارته سواء مكان منها نظريا أو منهجيا. ولم تحدث تلك التحولات في فراغ، وإنما جاءت مواكبة لمجريات الأحداث السريعة، واتجاهات الفكر المتعددة في أوروبا وخارجها إبان القرن العشرين، الذي يصفه المؤرخون بأنه عصر الصراع والحروب العالمية المدمرة، وكذلك عصر الانقلابات الفكرية والتغيرات الجذرية في القيم الاجتماعية بأوروبا الغربية، والفلسفات الإنسانية والعلاقات الدولية بصفة عامة. هذا علاوة على أنه عصر التحول الكبير في تخصصات العلوم وتطبيقاتها واتجاهات

الآداب والفنون.

لقد دفع الاتجاه العلمي الذي نشط في القرن التاسع عشر وتبلور بصورة جذرية وسريعة في عدة مجالات، العقل الإنساني إلى نبذ الفكر الفلسفي الميتافيزيقي الذي تحفظ في الغالب على قدرة العقل الإنساني في التوصل إلى الحقيقة المطلقة. وكنتيجة لذلك شهدت بدايات القرن العشرين قصور الميتافيزيقا عن حل المشاكل الإنسانية الجديدة إزاء ما كان قد قدمه العلم في القرن السابق، وما أحرزه أيضا من تقدم في العقدين الأولين من القرن العشرين، وما نتج عن ذلك من قيم جديدة يشع منها التفاؤل بمستقبل الإنسانية، والدعوة إلى النظر إلى العقل والمنطق المحسوس كأداة للمعرفة. إلا أنه سرعان ما عصفت أحداث الحرب العالمية الأولى (1914- 1918 م) بهذا التفاؤل، وبدأ الفلاسفة ينظرون إلى مشاكل إنسان القرن العشرين في إطار من التشاؤم إلى حد أن اعتقد بعضهم أن العالم مقبل ولا شك على عصر حالك خاصة على أثر ظهور الفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا خلال سنوات ما بعد الحرب، وأن ذلك يقضي على الآمال التي كانت معقودة على تحرير الإنسان، وإحراز تقدم حضاري كبير من خلال الاستخدامات البناءة للاكتشافات العلمية التي كانت قد برزت في ميادين الفيزياء (علوم الطبيعة) والطب خاصة. ولم يجد هؤلاء الفلاسفة التشاؤميون مخرجا من أزمة الحياة الإنسانية في ذلك «العالم السيئ» إلا أن يعود الإنسان إلى إحياء قيمه الدينية والتمسك بها، كما دعا إلى ذلك مثلا كل من كارل بارث السويسري K.Barth وراينهولد نيبور الألماني R.Neibuhr ولقد بلغ هذا الاتجاه ذروته في إطار ما عرف بالحركة الوجودية[1] Extentialism والتي شاعت في فرنسا بصفة خاصة حوالي عام 1938 على يد جان بول سارتر J.Sartre (1905 -1980). إلا أنه إلى جانب الوجودية ظهر اتجاه آخر اتصف بالتفاؤل إلى حد كبير، وكان الفيلسوف الأمريكي جون ديوي John Dewey (1859-1952) أبرز أعلامه. فقد تبنى ديوي في كتابه الشهير «إعادة البناء في الفلسفة» Reconstruction in Philosophy اتجاها مناهضا للفلسفة الميتافيزيقية، دعا فيه إلى ضرورة الاهتمام بالبحث عن القوى المعنوية، التي تحرك مناشط الإنسان الذي اعتقد ديوي أن لديه الكثير من الإمكانات والقدرات التي تستطيع أن تخرجه من أزمته الراهنة، وتساعده

على حل مشاكله المعقدة المتزايدة يوما بعد يوم، دون الحاجة إلى اللجوء إلى قوى خارج الطبيعة[2] (مرجع 107 ص 892).

إلى جانب تلك التيارات الفلسفية هناك أيضا الدين الذي كان له، ولا يزال ولو بدرجات متفاوتة، تأثيره على تشكيل «ثقافة القرن العشرين»-إذا صحّ هذا التعبير-والتي أثرت بدورها على الفكر الأنثروبولوجي كما سنوضح ذلك بالتفصيل فيما بعد. لقد استمر تأثير الدين على النظم الاجتماعية قويا كما كان في القرن التاسع عشر خاصة خلال العقود الأولى للقرن العشرين. إلا أن تعاليم الكنيسة وشوكتها، سرعان ما نالهما الكثير من النقد والتحدي من قبل الحركات المناهضة التي شجعها أيضا ما قام من خلافات بين الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية، وعدم مواكبتهما لروح واتجاهات العصر. لقد كان للتيارات التحررية والإنجازات العلمية والتكنولوجية الهائلة تأثير كبير على الإنسان الذي بدأ يشعر بأهميتها في حياته أكثر مما استطاعت أن تقدمه له الكنيسة من أفكار أو حلول.

الأمر الذي جعل البابا جون الثالث والعشرين يدعو القساوسة في نهاية الخمسينات إلى تقبل فكرة الحوار، ودعم حرية المناقشة في أمور الدنيا والدين، وأن يسترشدوا كذلك بطرق جديدة، تجاه بث روح الإيمان، والالتزام بتعاليم الكنيسة، غير وسائل القمع والتهديد التقليدية (مرجع 107 ص 895).

وقد شهدت الكنيسة الكاثوليكية بصفة خاصة تحديا من قبل الشباب والنساء خاصة، بسبب المواقف الصلبة والرجعية إزاء بعض المشاكل الإنسانية، مثل مشكلة تحديد النسل والحاجة إليها في مواجهة الانفجار السكاني العالمي، وتأكيد مسائل الحرية الشخصية والإرادة الفردية. نشير أيضا إلى موضوع زواج القساوسة الذي ترتب عليه أن ترك حوالي 44 قسا فرنسيا في عام 1970 عملهم احتجاجا على قيود الكنيسة الخاصة بزواجهم، وتبعهم في ذلك آخرون بهولندا. هذا علاوة على أن ثورات الشباب التي عمت أجزاء كثيرة من العالم خاصة خلال عقد الستينات، قد وجهت النقد اللاذع لتأييد الكنيسة لنظم الحكم الجائرة في البلاد المسيحية من دول العالم الثالث مثل أمريكا اللاتينية، والسكوت على التدخل الأمريكي في فييتنام (مرجع 107 ص 895) ورغم موقف الكنيسة الصلب لرفض التغيير في كثير من الحالات والتشبث بمواقفها التقليدية، إلا أنها لم تنجح في

صد رياح التغيير العاصفة خاصة خلال النصف الثاني من القرن العشرين الذي ازدهرت فيه الحركات التحريرية، واكتسبت شعبية كبيرة على النطاق العالمي، حتى بداخل الدول الغربية ذاتها. هذا إلى جانب أن التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل والسريع، شكل تحديا صارما لتعاليم الكنيسة ودورها في توجيه الفكر الإنساني، الأمر الذي فرض عليها تحركات جديدة لمواكبة تغيرات العصر، كما يتضح جليا في أسفار بابا روما الحالي واتصالاته، وأفكاره التجديدية.

وبصدد هذا التقدم العلمي والتكنولوجي المشار إليه آنفا، يجدر بنا أن ننوّه هنا بأن«العلم» قد شكل دعامة رئيسة من ثقافة القرن العشرين كما أن له-كما سنوضح فيما بعد-صلة وثيقة-بالفكر الاجتماعي والقضايا الإنسانية التي أثرت بدورها على تشكيل الدراسات الأنثروبولوجية، من حيث تحديد موضوعاتها ومناهجها وأهدافها. لقد أصبح إنسان القرن العشرين ينظر إلى «العلم» على أنه منقذ البشرية ولو أن هذا لا يعني أنه قد أدار ظهره كلية إلى الدين (مرجع 107 ص 897). ولم يسلم العلم على الرغم من الإيمان به، والانبهار بإمكاناته من النقد والخوف من نتائجه على الجنس البشري من ناحية تلوث الهواء والماء والبيئة بصفة عامة. وإنه لمن المحزن أيضا أن نرى مثلا أن الطفرة التقدمية الهائلة التي أحرزها في مجال علوم الفيزياء ألبرت آينشتاين A.Eienstien (1879- 1955).

وغيره من العلماء في الثلاثينات، والتي انتهت بإمكان توليد الطاقة عن طريق تحطيم المادة إلى ذرات متناهية الصغر. قد نتج عنها إعداد قنابل ذرية دمرت مدينتين يابانيتين في عام 1945. قتلت الآلاف من البشر. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، فقد توالت الاكتشافات العلمية والتكنولوجية بعد ذلك لتستخدم في إعداد أسلحة أكثر فتكا وتدميرا مثل القنبلة الهيدروجينية والنيتروجونية إلى حد مد التنافس والصراع إلى غزو الفضاء في السبعينات، والإعداد الآن إلى ما يشار إليه بحرب الكواكب (مرجع 107 ص 899).

وإلى جانب المجال الفيزيائي، هناك التقدم العلمي الكبير في مجال العلوم البيولوجية، خاصة في أعقاب الحرب العالمية الأولى. إن اكتشافات الفيروس، والمضادات الحيوية، والأنسولين، والأمصال الواقية على سبيل

المثال قد نتج عنها ثورة هائلة في مجالي الصحة والعلاج من الأمراض. ويقال إنه في عام 1970 كانت شعوب العالم بصفة عامة، ولو بدرجات متفاوتة، تتمتع بصحة أفضل من أي وقت مضى في التاريخ. إلا أنه كان هناك، ولا يزال، عدد من الشعوب التي ابتليت بالحروب والأزمات الغذائية الطاحنة، وبالفقر المدقع، والصراعات الاجتماعية الداخلية، الأمر الذي جعل أفرادها يعانون من المرض ويفتقدون أية رعاية صحية أو حتى مقومات الحياة الإنسانية الأساسية (مرجع 107 ص 904).

ففي إطار هذه الملامح الأساسية لثقافة القرن العشرين،، من ناحية الفلسفة والدين والعلم، نجد أن الفن والموسيقى والأدب قد تأثرت بتلك الثقافة كما أثرت فيها أيضا. ففي هذا العصر، الذي سادت فيه الثورة على القديم، والرغبة في التحرر من التقليد، والدعوة إلى آفاق جديدة، وأفكار متطورة تخلص الإنسانية من شرور التسلط السياسي والاضطهاد الاجتماعي، وسباق التسلح المدمر، نجد أن الموسيقيين قد خرجوا أيضا في ألحانهم عن المألوف.

كما عبّر الفنانون في إطار الواقعية، أو التجريد عن مخاوفهم وآمالهم. وفي مجال الأدب عامة تأثر البعض بالاتجاه الفلسفي التشاؤمي، وعبروا في قصصهم ومسرحياتهم عن خيبة الأمل في إنقاذ البشرية في إطار الحروب العالمية المتتالية والصراعات السياسية المستمرة، والآثار المدمرة للاكتشافات العلمية بدلا من توجيهها أساسا للاستخدامات الإنسانية. إن الإنسان يظهر في القصص الغربي وحيدا تائها وحائرا، إزاء ما يحدث حوله في هذا «العالم المجنون» التي تجري فيه الأمور بطريقة لا منطقية أو عقلانية أو حتى إنسانية، والإنسان الأوروبي-الذي كان يمثل في القرن التاسع عشر-ذروة التقدم الحضاري أصبح في القرن العشرين كائنا بائسا يستلهم العون ويبحث عنه من أي مصدر كان. ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى، اتجهت الأعمال الأدبية بصفة عامة نحو التعبير عن حالة التوتر التي يعيشها عالم القرن العشرين في عقوده الأولى. وعن حالة القنوط والاستخفاف بقيمة الحياة ذاتها التي تسود بين الأفراد كما صورها مثلا أرنست هيمنجواي E.Hemingway (1961- 1899) في قصته «وداعا للسلاح» وأيضا في أشعار ت-أليوت T.Elliot (1888- 1965) بعنوان «الأرض الخراب»

(The Waste Land) (مرجع 107 ص 907).

نجد بعد ذلك أن الكساد الاقتصادي الذي عم الغرب في الثلاثينات، إلى جانب قيام النظم الفاشية في إيطاليا، والنازية في ألمانيا، وما أعقب ذلك من حرب عالمية ثانية (1939- 1945) قد جعل الكتاب يتجهون إلى الدعوة إلى الخلاص من تلك الشرور بإقامة مجتمعات عادلة، والاعتقاد بأن الكفاح ضد الظلم والاستبداد هو أهم أساسيات الحياة، وهو الذي يعطي الفرد حريته وكيانه وللإنسانية كرامتها. وقد برز مثلا هذا الاتجاه واضحا في أحداث قصص الروائي الفرنسي أندريه مارلو Andre Malaraux (1901-1976) وكذلك في قصة همنجواي الشهيرة «لمن تقرع الأجراس» التي صدرت عام 1940. وظل هذا الاتجاه سائدا لفترة طويلة، حتى فيما بعد الخمسينات والستينات بسبب استمرارية روح العصر المتمثلة في التغير السريع، ومناهضة القديم الجامد، والرسمية المقاومة للخلق والابتكار، والدعوة إلى الحرية الشخصية، ونهضة المغلوبين من الأفراد أو الشعوب. ففي مجال الدعوة إلى حرية الفرد في حياته الخاصة، ومناهضة النظم الاستبدادية تبرز لنا قصة دكتور زيفاجو الشهيرة، Dr Zhivago التي صدرت في عام 1953 للكاتب الروسي بوريس باستيرناك. B.Pasternak كمثال جيد لهذا الاتجاه. كذلك نجد في قصص الكاتبين الأمريكيين الأسودين جيمس بالدوين J.Baldwin ولورين هانزبرج L.Hansberg مثالا للدعوة إلى تحرير السود في إطار المجتمع الأمريكي الذي يغلب عليه العنصر الأبيض (مرجع 107 ص 909- 910).

ونتساءل الآن كيف أثرت هذه الاتجاهات جميعها في مسار الأنثروبولوجيا إبان القرن العشرين ؟ وللإجابة على هذا السؤال، ربما يكون من الملائم أن نقسم هذا المسار إلى فترتين رئيستين. على أساس أن أحداث الحرب العالمية الثانية وما نتج عنها، يشكل في حقيقة الأمر فاصلا هاما ومميزا، رغم أن كثيرا من الاتجاهات الأنثروبولوجية قد تتداخل فيما بين تلك الفواصل الزمنية. ولغرض التبسيط في العرض، وإبراز محتوى وأهداف الاتجاهات الأنثروبولوجية مع ربط كل منها-كلما تيسر ذلك-بالجو الفكري والثقافي العام، وما يجري أيضا من تحول في مجال العلوم الاجتماعية الأخرى. وبصفة خاصة علمي النفس والاجتماع، يتناول الجزء التالي أهم

الاتجاهات الأنثروبولوجية التي تبلورت وسادت خلال الفترة من بداية القرن العشرين حتى منتصف الأربعينات، أي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية

لقد أوضحت المادة في الفصول السابقة، أن الوصول إلى الأسباب التي يقوم على أساسها التباين بين الثقافات والاختلاف في المستويات الحضارية، قد مثل قضية فكرية أساسية عبر العصور، كما كانت مجال كثير من الجدل والمناقشات التي تبلورت في نهاية الأمر فيما قدمه مفكرو القرن الماضي من نظريات أو تفسيرات تقوم على أساس فكرة التقدم الإنساني، وتطور الثقافات وفق مراحل محددة. فالثقافات تتباين وتختلف لأنها تشكل أوضاعا مختلفة في مراحل التقدم الإنساني. وقد سادت هذه الأفكار التطورية إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر،كما استمرت خلال العقدين الأولين من القرن العشرين، إلا أنها تلقت الكثير من النقد على أساس أنها استندت إلى الحدس والتخمين والاعتماد على مادة يشوبها التحيز وعدم الدقة، إلى جانب الالتجاء إلى التعميم المطلق لكل الثقافات في الزمان والمكان بدون تقديم الدلائل والقرائن التي تثبت صحة فروض النظرية التطورية ومقولاتها. وكنتيجة لهذا النقد قلت أهمية النظرية التطورية تدريجيا وحل محلها محاولات جديدة للنظر إلى الثقافات الإنسانية وتفسير التباين بينها. ففي خلال العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين تبلورت ثلاثة اتجاهات رئيسة تفاعلت مع بعضها البعض. كما ارتبطت أيضا بمقتضيات العصر وما تتناوله العلوم الاجتماعية بصفة عامة من قضايا نظرية وعملية تتعلق بالفرد والمجتمع وأحوال العالم.

هذه الاتجاهات الثلاثة هي:-(1) **الاتجاه التاريخي-التجزيئي** Historical Particularism (2) **الاتجاه البنائي الوظيفي** Structural-Functional (3) **والاتجاه التاريخي-النفسي (التشكيليون** Configurationalists) وربما يجدر التنويه بأن استخدامنا هنا لكلمة اتجاه تشير إلى منطلق عام، أو توجه فكري مميز، وعادة ما يندرج تحته أكثر من نظرية، أو منهج في معالجة نفس المشكلة. إن استخدامنا أيضا لكلمة مدرسة يعني الإشارة إلى مجموعة من الأفراد والأعمال التي تتبنى فكرا نظريا مشتركا،أو أولئك الذين يستخدمون منهجا محددا في جمع المادة وتحليلها. لهذا فمن المألوف أن يحتوي اتجاه معين على عدة مدارس، وقد يحدث أيضا أن تتباين وجهات النظر بين

أصحاب المدرسة الواحدة الأنثروبولوجية، وكثيرا ما تستخدم كلمة النظرية في لغتنا اليومية للإشارة إلى فرض واعتقاد لم يثبت صدقهما، أو لم يقدم بعد الدليل أو البرهان على صحتهما. ينطبق هذا على استعمال كلمة نظرية في المجال العلمي أيضا، إذ أن النظرية العلمية تتضمن عنصرين أساسيين وهما: «السؤال» الذي تطرحه و «الإجابة» التي تقدمها، ولكي تثبت صحة هذه الإجابة لا بد من وجود البرهان أو الدليل على صحتها، وهذه الأدلة والبراهين لا تستقيم بدون حقائق ملموسة، وأساس منطقي أو فروض تخضع للمشاهدة والتجربة. فالنظرية إذن عبارة عن «إطار فكري يفسر فرضا معينا أو مجموعة من الفروض ويضعها في نسق علمي مترابط» (مرجع 101 ص 424).

ولا تنشأ النظرية من فراغ-بالطبع-ذلك أن النظريات العلمية والإنسانية ترتبط بالضرورة بالزمان والمكان ونوعية الحياة ومتطلباتها. ونظرا لأن هدف النظريات هو تكوين إجابات أو تفسيرات لأسئلة معينة، فقد تتفق أو تتعارض النظريات بعضها مع بعض أو تتعارض ولكنها تقوم في النهاية بتكوين وحدة فكرية متصلة ومترابطة، كما تمثل نموا مضطردا للفكر الإنساني وللتقدم العلمي. ويلاحظ أيضا أن كل نظرية تكون مجموعة معينة من المفاهيم التي تستخدمها في طرح السؤال وتقديم الإجابة عليه. وفي هذا الصدد تختلف النظريات من حيث إطار المفاهيم المستخدمة. والمفهوم ما هو إلا كلمة أو عبارة عادية تشبه في كثير من الأحيان ما نستخدمه في أحاديثنا اليومية، إلا أن العلماء يعطونها عادة معنى مجردا أو تفسيرا موحدا إلى حد ما، الأمر الذي يجعلها بمثابة لغة مصطلح عليها بين العلماء. ويلجأ العلماء أيضا إلى التجريد والتعميم عند تكوين مفاهيمهم، وذلك بغرض استخدام هذه المفاهيم كأدوات تحليلية لوصف المادة موضع البحث ودراستها.

نقدم فيما يلي نبذة موجزة ومبسطة للغاية عن كل اتجاه من الاتجاهات المشار إليها سابقا. ونود إحاطة القارئ علما بأنه من اليسير له الحصول على معلومات إضافية وتفصيلية عن كل اتجاه، بمراجعة الكتب والمراجع في مجال الدراسات الأنثروبولوجية والمشار إلى بعضها في قائمة المراجع. إن هدفنا في هذا العرض هو أن نطلع القارئ على طبيعة تلك الاتجاهات ومكانها في تطور الفكر الأنثروبولوجي في إطار السياق الفكري العام للمجتمع، وطبيعة اهتمامات العصر.

ا - الاتجاه التاريخي / التجزيئي:

لقد سبق أن ذكرنا في الفصل السابق أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد سيطرة كبيرة للفكر التطوري، في إطار الدراسة النظرية للتاريخ الحضاري للإنسانية، ومع ذلك فقد برز الاتجاه الإنتشاري كمحاولة أخرى، مناهضة للتطور، لتفسير عمليات التغير-الحضاري لتاريخ الإنسان، سواء كان الفكر تطوريا أو انتشاريا، فقد استمر الاهتمام باستخدام التاريخ لتفسير ظاهرة التباين الثقافي (الحضاري) للمجتمعات الإنسانية، وافترض المناهضون للتطور أن الاتصال بين الشعوب المختلفة قد نتج عنه احتكاك ثقافي، وعملية انتشار لبعض، أو كل، السمات الحضارية، الأمر الذي يمكن أن يفسر في ضوئه التباين الحضاري للشعوب وليس في إطار عملية تطورية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الاتجاه قد تبنى منهجا تاريخيا-جغرافيا بتأثير كبير من المدرسة الجغرافية الألمانية، ورائدها فردريك راتزال، الذي ركز على أهمية الاتصالات والعلاقات الحضارية بين الشعوب ودورها في النمو الحضاري. وقد نمى تلاميذه هذا الاتجاه وخاصة هاينريخ شورتز H.Schurtz الذي أبرز فكرة وجود علاقات حضارية بين العالم القديم (إندونيسيا وماليزيا) والعالم الجديد (أمريكا) وكذلك ليو فروبينيوس L.Frobenuis صاحب نظرية الانتشار الحضاري بين إندونيسيا وأفريقيا (مرجع 83 ص 259). وانطلاقا من هذا المنظور، افترض البعض أن عملية الانتشار هذه ربما تكون قد بدأت من مركز حضاري محدد، ثم انتقلت عبر الزمان إلى أجزاء العالم المختلفة من خلال الاتصال بين الشعوب. وقد ظهر في أوروبا نظريتان مختلفتان بصدد هذا التفسير الإنتشاري لعناصر الثقافة. ففي إنجلترا ظهرت المدرسة الانتشارية التي أرجعت نشأة الحضارة الإنسانية كلها إلى مصدر أو مركز واحد[3] وعن طريق الاحتكاك الثقافي بين الشعوب سواء عن طريق التجارة أو الغزوات أو الهجرة انتشرت عناصر تلك الحضارة المركزية أو الرئيسة واتسعت دائرة وجودها (راجع 83 و 127 و 179). تزعم هذه المدرسة عالم التشريح البريطاني أليوت سميث E.Smith (1871- 1937) وكان مهتما بالآثار والهيكل البشرية-ومعه أيضا تلميذه وليم بيري W.J.Perry (1949- 1888) اللذان رأيا أن الحضارة الإنسانية نشأت وازدهرت على ضفاف نهر النيل في مصر القديمة منذ حوالي خمسة آلاف

سنة قبل الميلاد تقريبا، وذلك بعد فترة طويلة عاشتها الإنسانية على الصيد. وعندما توافرت الظروف وبدأت الاتصالات بين الجماعات والشعوب انتقلت بعض مظاهر تلك الحضارة المصرية القديمة إلى بقية العالم التي عجزت شعوبها عن الابتكار أو الاختراع فعوضت ذلك بالاستعارة والتقليد (مرجع 127). إلا أن فريقا من الألمان والنمساويين وعلى رأسهم فريتز جرايبنور (1877- 1934) و ولهم شميدت W.Schmidt (1868-1959) رفضوا فكرة المنشأ الواحد للحضارة الإنسانية التي هي أقرب إلى الخيال أكثر من كونها علمية الأساس (على حد تعبير جان بواربيه، (مرجع 179 ص 91). وافترضوا وجود عدة مراكز حضارية أساسية في جهات متفرقة من العالم. وأنه نشأ عن التقاء الحضارات مع بعضها البعض، نوع من الدوائر الثقافية وحدثت بعض عمليات الانصهار والتشكيلات المختلفة، الأمر الذي يفسر أوجه الاختلاف عن تلك الثقافات المركزية أو الأساسية. إلا أن أصحاب هذا الرأي لم يقدموا الدلائل على وجود تلك المراكز، أو تتبع حركات الاتصال بينها، ودراسة النتائج المترتبة على ذلك بطريقة منهجية سليمة. ورغم هذا الاختلاف في وجهة النظر بين المدرستين البريطانية والألمانية-النمساوية إلا أنهما اتفقتا في رفض حتمية تطور المجتمعات كلها وفق قانون ثابت، وأنه من غير المعقول أن يتشابه التكوين العقلي عند جميع البشر. وليس من الممكن أيضا أن تتمتع جميع الشعوب بقدر متماثل من الخلق والابتكار، ولكنها تستطيع بسهولة أن تستعير من غيرها ما تعجز عن ابتكاره بنفسها.

ولم يقتصر التفسير الإنتشاري على أوروبا وحدها،بل ظهرت أيضا في أمريكا حركة مماثلة في نقدها للتفسير التطوري للثقافة، والاتفاق من ناحية المبدأ مع كل من إليوت سميث و ولهم شميدت على فكرة انتشار السمات الثقافية والاستعارة كأساس لتفسير التباين الثقافي بين الشعوب. وبصدد فكرة المراكز الحضارية أو الدوائر الثقافية التي قدمها الانتشاريون الأوروبيون ترى المدرسة الأمريكية أن الملامح المميزة لثقافة ما قد وجدت أولا وقبل كل شيء في مركز ثقافي جغرافي محدد، ثم انتقلت إلى مناطق أخرى. وبذلك رفض الانتشاريون الأمريكيون ما ذهب إليه الأوروبيون من الزعم بعدم إمكانية التطور المستقل، وأن الناس بطبيعتهم غير مبتكرين ويعتبر فرانز بواز الرائد الأول لهذا الاتجاه التاريخي / التجزيئي في

أمريكا.حيث عارض الفكرة القائلة بوجود طبيعة واحدة وثابتة للتطور الثقافي، ورأى أن أية ثقافة من الثقافات ما هي إلا حصيلة نمو تاريخي معين. وكنتيجة لذلك فالباحث الأثنولوجي الذي يدرس الثقافات يجب إذن أن يوجه اهتمامه نحو دراسة تاريخ الجزئيات المختلفة والعناصر المكونة لثقافة ما كلّ على حده، وذلك قبل الوصول إلى تعميمات بشأن المجتمع الإنساني وثقافته ككل. ورغم ما أثير في بعض الأحيان في أن هذا المنهج التاريخي / التجزيئي يستلزم وقتا طويلا قد يؤدي إلى نتاج ضئيل، إلا أن بواز أصر على أنه لكي تصبح الأنثروبولوجيا علما، فلا بد أن تعتمد في تكوين نظرياتها عل الحقائق الملموسة والمشاهدات، لا على التخمينات أو الفروض الحدسية (مرجعا 6 و 127).

لقد أشار بواز الذي كان متخصصا في الجيولوجيا والجغرافيا، قبل أن يشتغل بالأنثروبولوجيا، إلى أنه من خلال دراسة الشكل والتوزيع الجغرافي لمصدر السمات الثقافية، وهجرتها واستعارتها عن طريق الاتصال بين الشعوب، يمكن للباحث أن يستدل على كيفية نشأة وتطور السمات الثقافية، وبالتالي يمكن الوصول في النهاية إلى نظرية تتوفر فيها عناصر الصدق والبرهان لتفسير تغير المجتمعات الإنسانية وتطور النظم الاجتماعية أو السمات الثقافية. وفي إطار هذا المنطلق النظري استخدم فرانز بواز مصطلح المناطق الثقافية، ليشير إلى مجموعات من المناطق الجغرافية التي تتصف كل منها بنمط ثقافي معين بغض النظر عن احتواء كل من هذه المناطق على عدة شعوب أو جماعات. وفي تطبيق هذا المفهوم على ثقافات قبائل الهنود الحمر بأمريكا، أمكنه حصر-أو تمييز-سبع مناطق ثقافية رئيسة يندرج تحتها هذا العدد الهائل من قبائل الهنود الحمر الذي كان يزيد على خمسمائة قبيلة في الوقت الذي نزح فيه الأوروبيون لاستعمار القارة الأمريكية. وبهذا يشير مفهوم المنطقة الثقافية إلى طرق السلوك الشائعة بين عدد من المجتمعات التي تتميز باشتراكها في عدد من مظاهر الثقافة نتيجة لدرجة معينة من الاتصال والتفاعل (مرجع 6 ص 202).

ولقد لاحظ بواز أن منطقة السهول في أمريكا الشمالية يوجد فيها عدة جماعات هندية، لكل منها ثقافتها المميزة، ولكل منها اسمها القبلي ولغتها واستقلالها. إلا أنه اكتشف أن هناك-مع ذلك-عددا من السمات

الثقافية المشتركة بينها جميعا. فقد كانوا مثلا يصطادون الجاموس للغذاء، ويبنون المسكن على أعمدة مع تغطيتها بالجلود التي يستخدمونها أيضا في صنع الملابس. وكان رجال هذه القبائل ينقسمون إلى مجموعات من المدافعين يسكنون في معسكرات عل شكل دائري، ويمارسون في عباداتهم طقوسا مماثلة. وهكذا جاء مفهوم أو اصطلاح المنطقة الثقافية بمثابة تصنيف وصفي وتحليلي للثقافات، الأمر الذي يسهل المقارنة بين الثقافات والوصول إلى تعميمات بشأن الثقافة الإنسانية ككل. وأصبح من الممكن مثلا أن تعقد المقارنات بين ثقافتين مثل ثقافة هنود السهول بأمريكا التي تتميز بوجود الجاموس الوحشي الذي يعتمد عليه السكان في منطقة السهول العظمى اعتمادا كبيرا، وبين الثقافة النيلية الحامية التي تنتشر بين عدد كبير من قبائل شرق أفريقيا (مرجع 6 ص 203).

وفي هذا الإطار النظري والتحليلي أصبح هدف المدرسة الأمريكية بزعامة بواز هو الدراسة التاريخية الدقيقة للعناصر المختلفة لثقافة معينة (الهنود الحمر مثلا) وتحليل كل جزء أو عنصر من حيث مصدر نشأته وتطوره، واستخدامه وتتبع عمليات هجرته أو استعارته بين الشعوب المختلفة. ونتج عن هذا الاتجاه الإنتشاري بصفة عامة، أن بدأ الأنثروبولوجيون ينظرون إلى الثقافات الإنسانية باعتبار أن لها كيانات مستقلة من حيث المنشأ والتطور والملامح الرئيسة التي تميزها عن غيرها، وذلك على عكس التطوريين الذين رأوا أن الثقافات متشابهة، وأن الاختلاف الوحيد بينها يكمن فقط في درجة تطورها التكنولوجي والاقتصادي. وبهذا يرجع الفضل إلى المدرسة الانتشارية في طرح فكرة تعدد وتنوع الثقافات والنسبية الثقافية التي أصبحت منذ ذلك الحين من أهم المفهومات الرئيسة في الفكر الأنثروبولوجي وتطوره، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو خارجها. وقد لاقى هذا المصطلح رواجا وقبولا خاصة في عصر كانت فكرة النسبية عند أينشتاين في العلوم الطبيعية قد حازت الاهتمام النظري والاستخدام العملي إن الشعوب عادة-ومنذ القدم-تميل إلى الاعتقاد بأن تراثها الفكري وأسلوب حياتها يمثلان في نظرها الأفضل دائما، والمتميز عن غيره من معتقدات وثقافات الآخرين، ولكن هذا التحيز الثقافي أو الاعتداد بالجنس-كما يشار إليه في بعض الكتابات العربية-لا يجب أن يشكل أساسا للنظر

إلى الثقافات الأخرى، والتعامل أو الاتصال بين الشعوب. فكل ثقافة لها معنى وقيمة يتناسبان مع المكان والزمان والخبرة الإنسانية في مواءمتهما مع البيئة، وفي إطار ظروفهما التاريخية. فالثقافة ظاهرة نسبية، بمعنى لا يجب عند نظرنا إلى ثقافات الشعوب في هذا الإطار، أن نحكم عليها بالخطأ أو الصواب، أو بالقبول أو بالرفض. وقد اتصفت كتابات المشاهدين والرواة والمؤرخين الأوروبيين في العصور الوسطى عن الثقافات الأخرى بالتحيز الثقافي. وذلك لأنهم نظروا إلى الوقائع المشاهدة من منطلقاتهم الفكرية والثقافية. وتصوراتهم عن الحياة والأفراد، وحكموا على ما شاهدوه بالبدائية أو الهمجية، أما النسبية الثقافية فتمثل مدخلا ومفهوما رئيسين للاتجاه الموضوعي النسبي في الدراسات الأنثروبولوجية. فالأنثروبولوجيون- نظريا على الأقل-لا يفضلون ثقافة على أخرى، وإنما يجدون في كل الثقافات مظهرا أو وسيلة عملية لحل مشكلات الإنسان في بيئة معينة وزمن محدد.

فمن وجهة النظر الأنثروبولوجية يمثل مفهوم «النسبية الثقافية» في حقيقة الأمر دعوة إلى الأخذ بضرورة تنوع الشعوب، واحترامها، ومحاولة دراستها وتفهمها والوصول إلى أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات، الأمر الذي يساعد على فهم أفضل للطبيعة الإنسانية وتفسير سلوك الأفراد كافة، والتعرف على أنماط الحياة الاجتماعية في الحاضر والمستقبل. هذا ويجب أن ننوه في هذا المجال بأن الدعوة إلى النظر إلى سلوك الأفراد أو الجماعات في الثقافات المختلفة في السياق العام للقيم والقواعد التي تحكم هذا السلوك، لا تعني أن كل أشكال السلوك الإنساني مقبولة، فهناك العديد من الاتجاهات والمعتقدات والممارسات التي قد تخالف أو تناقض ما توصلت إليه الحضارة الإنسانية المعاصرة من قيم عليا وحقوق إنسانية. نذكر من بين تلك الممارسات الحروب الاستعمارية، والإرهاب والقتل الفردي، أو الجماعي وبعض العادات والتقاليد التي قد لا تتواءم مع متطلبات الحياة العصرية، وتتنافى مع رغبة الشعوب في التقدم وتحسين نوعية الحياة. فالنسبية الثقافية لا تدعو إذن إلى قبول الأمور على علاتها، وإنما هي بمثابة محاولة لتفهم وقائع الأمور ودوافعها ومبرراتها في إطار السياق العام للعمليات الثقافية، الأمر الذي يساعدنا على تطور فهمنا لسلوك الشعوب الأخرى وعلى فاعلية التعامل معها في إطار من الفهم المشترك

والاحترام المتبادل (مرجع 123).

ب - المدرسة البنائية-الوظيفية:

نشأ الاتجاه البنائي-الوظيفي لدراسة الثقافات الإنسانية[4] في الوقت الذي ظهرت فيه نظريات الانتشار الثقافي في كل من أمريكا وأوروبا كرد فعل عنيف إزاء النزعة التطورية. واتصف الاتجاه البنائي الوظيفي بأنه لا تطوري، وبالتالي لا تاريخي، إذ ركز على دراسة الثقافات كل على حدة في واقعها وزمنها الحالي. فالوظيفة إذن ليست دراسة متزامنة وإنما آنية، ولذلك اختلفت كلية عن الدراسات التاريخية التي اعتمد عليها كل من التطوريين والإنتشاريين على حد سواء. إن رفض الوظيفيين للمنهج التاريخي يضمن في نظرهم الطريقة العلمية لدراسة الثقافات الإنسانية، إذ أن العلم لا يهتم بتاريخ الظاهرة التي يبحثها قدر تركيزه على الكشف عن العلاقات القائمة بالفعل بين عناصر تلك الظاهرة ككل وعلاقتها بغيرها من الظواهر الأخرى. ويؤدي هذا في النهاية إلى الوصول إلى القوانين التي تحكم الظاهرة موضع الدراسة من ناحية تكوينها وأدائها لوظيفتها.

تبلور الاتجاه البنائي-الوظيفي في مجال الأنثروبولوجيا عن طريق الأفكار والكتابات اللتين طرحهما كل من العالمين البريطانيين برونسلو مالينوفسكي (1884- 1942 م) وراد كليف براون (1881- 1955 م). وتجدر الإشارة أن كلاهما مدين بكثير من أفكاره واتجاهاته النظرية إلى المفاهيم التي قدمها العالم الفرنسي ايميل دوركايم، الذي يعتبر في حقيقة الأمر حلقة ربط وهمزة وصل بين الفكر الذي كان سائدا في القرن التاسع عشر والاتجاهات الجديدة للفكر الاجتماعي التي ظهرت في بداية القرن العشرين. فقد اهتم دوركايم بدراسة الطريقة التي تعمل بها المجتمعات الإنسانية ووظائف نظمها الاجتماعية وبذلك اختلف كثيرا عما كان سائدا في القرن التاسع عشر من ناحية الدراسة التاريخية لتطور المجتمعات الإنسانية والسمات الثقافية. ومما هو جدير بالذكر أن الاتجاه البنائي الوظيفي يعبر في جملته عن منهج دراسي تم اشتقاقه عند استخدام المماثلة بين المجتمعات الإنسانية والكائنات البشرية، وأنه لم يعد قاصرا على الأنثروبولوجيين، وإنما تناوله أيضا علماء الاجتماع بالفحص والتطبيق والتعديل على يد تلكوت بارسون T.Parson

وجورج ميرتون G.Merton، كما انه ارتبط أيضا بالعلم الطبيعي، وخاصة علوم الحياة والكيمياء والميكانيكا (مرجع 63 ص 150- 184).

ويرى مالينوفسكي أن ثقافة أي مجتمع تنشأ وتتطور في إطار إشباع الاحتياجات البيولوجية للأفراد، والتي حصرها في التغذية والإنجاب والراحة البدنية، والأمان والاسترخاء، والحركة والنمو. وتنشأ النظم الاجتماعية عادة لتحقيق تلك الرغبات، فنجد مثلا أن الزواج والأسرة يشبعان الحاجة الجنسية ويؤديان وظيفة الإنجاب والتربية، كما أن المسكن والملبس يمكنان الجسم من الحصول على القدر اللازم من الراحة والتوافق البدني والنفسي. ولكي تستمر الثقافة في أداء وظيفتها من ناحية إشباع تلك الحاجات الإنسانية الضرورية فمن الضروري إذن-في رأي مالينوفسكي- أن تتوافر اللوازم المادية كأدوات الصيد والحرب مثلا. ولا بد أيضا من وضع قواعد ونظم واجبة الاحترام والطاعة والتطبيق لأحكام الضبط الاجتماعي، علاوة على ضرورة وجود تقسيم للعمل على أساس الجنس والسن، وتحديد الأدوار والمكانات بين الأفراد مما يؤدي إلى نشأة تنظيم اجتماعي متماسك له صفتا الاستقرار والاستمرار. أما عن الفنون والرقص والشعائر الدينية، فتلك تمثل الجانب الروحي والرمزي الذي تستمد منه النظم الأخرى تكوينها وفاعليتها، وفي إطار هذا التنظيم المادي والروحي يذكر مالينوفسكي: أنه يمكن للأفراد أن ينشئوا لأنفسهم ثقافة خاصة أو أسلوبا معينا للحياة ويضمن لهم إشباع حاجاتهم البيولوجية الأساسية (مرجع 127 ص 304).

ربط مالينوفسكي إذن الثقافة بكل جوانبها المادية والروحية بالاحتياجات الإنسانية. فالثقافة في رأيه عبارة عن كيان كلي وظيفي متكامل يماثل الكائن الحي، بحيث أنه لا يمكن فهم دور أو وظيفة أي عضو من أعضائه إلا في ضوء علاقته بباقي أعضاء الجسم. ومن خلال هذا التشابه بين الثقافة والكيان العضوي للإنسان فإن دراسة الدور أو الوظيفة التي يؤديهما كل عنصر ثقافي تمكن الباحث الأنثولوجي من اكتشاف ماهيته وضرورته. فالعنصر الثقافي لا يمكن فهمه-في نظر مالينوفسكي-عن طريق إعادة تكوين تاريخ نشأته أو انتشاره-كما دعا إلى ذلك بواز-وإنما من خلال دراسة وظيفته الفعلية. وفي إطار علاقته مع العناصر الأخرى. يترتب على ذلك

ضرورة دراسة ثقافات الشعوب كل على حده، في إطار وضعها الحالي لا كما كانت عليه أو كيف تغيرت. وبصفة عامة يمكن القول: إن مالينوفسكي قد قدم مفهوم الوظيفة كأداة منهجية لتمكن الباحث الأنثروبولوجي من إجراء ملاحظاته بطريقة مركزة ومتكاملة أثناء وصفه للثقافة البدائية (مرجع 127 ص 304). فمفهوم الوظيفة في نظر مالينوفسكي تعني الدور أو الإسهام الذي يقوم به كل نظام اجتماعي في حياة المجتمع ككل، ولذلك لا يمكن لنا فهم وظيفة أي نظام اجتماعي في مجتمع ما، بسيطا كان أو مركبا، إلا في ضوء علاقة وظيفة (أو وظائف) هذا النظام مع وظيفة (أو وظائف) النظم الأخرى. ولهذا ينظر مالينوفسكي إلى مصطلح النظام الاجتماعي Social Institution كمفهوم أساسي في تحليل الثقافة البدائية إلى عناصر جزئية تسهل معها الدراسة الوظيفية وفهم الطريقة التي تسير بها الأمور في المجتمع، والتي تعمل على تماسكه واستمراره. فالنظام الاجتماعي في نظر مالينوفسكي هو نسق منظم، وهادف لجهد وإنجاز إنساني (مرجع 158 ص 51).

وإذا انتقلنا إلى رادكليف براون مؤسس المدرسة البنائية، وجدنا أنه قد قام بدور رئيس خاصة في بلورة وتدعيم الفكر البنائي، في الدراسات الإثنولوجية منذ بداية القرن العشرين وفي توجيه الأثنولوجيا نحو الدراسات المتزامنة، والابتعاد عن الفكر التطوري بافتراضاته التاريخية، إلا أنه يختلف مع مالينوفسكي في تفسيره للثقافة في إطار بيولوجي. فقد اتجه رادكليف براون نحو دراسة المجتمع وتفسير الظواهر الاجتماعية تفسيرا اجتماعيا بنائيا وظيفيا. متأثرا في ذلك بكتابات أميل دوركايم، الذي طرح فكرة أن الوظيفية التي تطبق على المجتمعات الإنسانية تقوم على المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية. وانطلاقا من هذا المفهوم تصور رادكليف براون أنه كما أن للجسم الإنساني بناء، أو تركيبا متكاملا. فإن المجتمع أيضا له تركيب أو بناء اجتماعي يتكون من «الأفراد الذين يرتبطون بعضهم ببعض، وكل واحد منهم متماسك مع الآخر عن طريق علاقات اجتماعية مقررة[5]» هذا ويرتبط استمرار هذا البناء بعملية الحياة الاجتماعية ذاتها، بمعنى أن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع معين هي التي تكون ذلك البناء وتحافظ عليه. ففي مقالة عن «البناء الاجتماعي» يوضح رادكليف براون

أنه يندرج تحت هذا المفهوم كل العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين شخص وآخر. كما يدخل أيضا التمايز القائم بين الأفراد والطبقات بحسب أدوارهم الاجتماعية» (مرجع 17 ص 5). ويستطرد رادكليف براون القول موضحا: «إن الحقيقة العينية التي نهتم بها في دراستنا للبناء الاجتماعي، هي تلك الفئة من العلاقات القائمة بالفعل في لحظة معينة بالذات من الزمان، والتي تربط بين جماعة معينة من الناس، فملاحظاتنا المباشرة تنصب في الواقع على مثل هذه الحقائق، ولو أنها ليست هي الشيء الذي نحاول أن نصفه في كل تفاصيله ودقائقه. فالعلم (من حيث هو متميز عن التاريخ أو تراجم حياة الأفراد) لا يهتم بالجزئي أو بالشيء الفريد وإنما يهتم فقط بالعام، أي بالأنواع، وبالأحداث التي يتكرر وقوعها. فالعلاقات القائمة بين أ، ب، ج مثلا. وكذلك سلوك د، ه كلها أمور قد ندونها في مذكراتنا أثناء الدراسة الحقلية. ثم نستخدمها كأمثلة للوصف العام. ولكن الذي نحتاج إليه للأغراض العلمية هو دراسة صورة البناء، فإذا لاحظت مثلا في إحدى القبائل الأسترالية عدة حالات لنوع السلوك القائم بين الخال وابن الأخت، فإنني أفعل هذا لكي أسجل بكل دقة الصورة العامة أو السوية لهذه العلاقة مجردة من كل تغايرات الأمثلة الجزئية رغم إدخال هذه الاختلافات موضع الاعتبار.

وهذا التمييز بين البناء من حيث هو حقيقة عينية موجودة بالفعل يمكن ملاحظتها مباشرة، وبين الصورة البنائية-بالشكل الذي يصفه لنا الباحث الحقلي-يمكن توضيحه إذا نظرنا إلى استمرار البناء الاجتماعي خلال الزمن. فاستمرار هذا البناء ليس استمرارا استاتيكيا كاستمرار مبنى من المباني، وإنما هو استمرار ديناميكي يشبه استمرار البناء العضوي للجسم الحي. فالكائن العضوي يتجدد بناؤه باستمرار طيلة حياته، وكذلك الحياة الاجتماعية تتجدد باستمرار البناء الاجتماعي». (مرجع 17 ص 5).

وفي معرض المقارنة[6] بين مالينوفسكي ورادكليف براون ربما يمكن القول: بأنه إذا كان السؤال الرئيس عند مالينوفسكي، الذي حاول الإجابة عليه في سلسلة من الكتابات عن أهالي جزر التروبرياند في شرق غينيا الجديدة، هو كيف تعمل مجموعة من العادات، والتقاليد، والنظم الاجتماعية، لتفي بالاحتياجات الجسمية والنفسية للأفراد: فإن رادكليف براون قد

وجه بحوثه في جزر الاندمان نحو مسألة تماسك النظام الاجتماعي، أي كيف يمكن الحفاظ على التضامن والترابط بين مكونات الكيان أو البناء الخاص بمجتمع معين ؟. وبالتالي، فقد رفض كلاهما فكرة تجزئة عناصر الثقافة، أو مكونات البناء الاجتماعي إلى وحدات صغيرة يعمل الباحث على تقصي تاريخ منشئهما وانتشارها، أو تطورها عبر الزمان أو المكان. كما دعا إلى ذلك التطوريون أو الانتشاريون وقد تطلب هذا المنطلق النظري الاتصال المباشر بالثقافات موضع الدراسة من خلال منهج الدراسة الحقلية لوصفها في حالتها الراهنة، أو الآنية. والذي كان لمالينوفسكي الفضل-وربما أكثر من رادكليف براون-في طرحه وتدعيمه. وفي أعقاب نشر كل من مالينوفسكي ورادكليف براون لأعمالهما، وجد اتجاههما البنائي الوظيفي في دراسة الثقافات الإنسانية قبولا واسعا، خاصة في وقت بدأت المدرسة التطورية تفقد أتباعها ومؤيديها. وكذلك عجزت المدارس الانتشارية عن أن تجد الكثير من التأييد في غيبة البرهان على صدق فروضها وبسبب الرغبة، خاصة من قبل الإدارات الحكومية الممولة للبحوث، والجمعيات المدرسية أيضا في أولوية الحاجة لدراسة ثقافات الشعوب المستعمرة. أعطى ذلك الاتجاه البنائي الوظيفي دفعة قوية، وانتشارا سريعا في أوروبا وأمريكا على حد سواء، خاصة بعد أن أثر مالينوفسكي في عقول طلاب جامعة ييل Yale خلال خمس سنوات (1939- 1944) بمحاضراته عن قواعد المنهج الحقلي، كما كان لرادكليف براون تأثير على الأمريكيين خلال فترة تدريسه بجامعة شيكاغو من عام 1931- 1937.

وبصفة عامة، وكأحد نتائج الاتجاه البنائي الوظيفي الهامة نجد حركة واسعة بين الأنثروبولوجيين للخروج من أوروبا في الثلاثينات والأربعينات لأجراء دراسات حقلية في أماكن متعددة من المستعمرات، لجمع مادة أولية لوصف وتحليل الثقافات في سياقها الواقعي. وقد نتج عن ذلك العديد من الكتابات الوصفية والتحليلية للقبائل والمجتمعات المحلية الصغيرة بالمستعمرات الأوروبية في آسيا وأفريقيا، الأمر الذي أثرى الأثنولوجيا بمادة أولية جمعت بطريقة منهجية تفوق ولا شك تلك المعلومات التي كان قد جمعها الرحالة والمستكشفون في القرون السابقة. ولعل من بين الإسهامات التي أتت بها المدرسة البنائية الوظيفية هو تأكيد خاصية نسبية

الثقافة الإنسانية، الأمر الذي ساعد على تقويض دعائم فكرة العنصرية والتعالي الغربيتين، حيث أوضح التحليل البنائي والوظيفي للمجتمعات البدائية أن الثقافة أسلوب حياة له مقوماته العقلانية، كما يعكس مواءمة مقبولة بين الناس والبيئة والاحتياجات الفردية.

و بصدد دراسة استخدام مصطلح «المجتمعات البدائية»[7] ربما تجدر الإشارة هنا إلى ما ذكره الأنثروبولوجي البريطاني الشهير، إيفانز-بريتشارد من أن كلمة بدائي هي في حقيقة الأمر اختيار غير موفق لوصف المجتمعات المنعزلة غير الأوروبية. والواقعة تحت طائلة الاستعمار الغربي، إلا أنها أصبحت اصطلاحا واسع الانتشار إلى حد لا يمكن تجنبه. وعلى أية حال يستخدم الأنثروبولوجيون هذا الاصطلاح ليشيروا إلى المجتمعات الصغيرة سواء من ناحية عدد السكان أو المساحة أو تشعب العلاقات الاجتماعية. وتتصف المجتمعات البدائية عادة ببساطة الفنون والأدوات، والنظم الاقتصادية وقلة التخصص في الوظائف الاجتماعية إذا قورنت بالمجتمعات الأوروبية. إلى جانب ذلك يضيف بعض الأنثروبولوجيين بعض المقاييس والمعايير الأخرى مثل عدم وجود تراث مكتوب، وبالتالي عدم وجود أي فن متقدم أو علم لاهوتي (ديني) منهجي منظم (مرجع رقم 13 ص 14).

لقد سبق أن أوضحنا في الفصلين السابقين كيف أن فكرة دراسة المجتمعات البدائية قد جذبت انتباه المشتغلين بدراسة النظم الاجتماعية منذ القرن الثامن عشر. فقد نظر إليها الفلاسفة على أنها تمثل الحالة الطبيعية التي ظنوا أن الإنسان كان يعيشها قبل أن يظهر نظام الحكومة المدنية. اهتم بها بعد ذلك علماء الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر لاعتقادهم أنها تقدم لهم الدلائل والشواهد التي تساعدهم في البحث عن أصول النظم الاجتماعية، وتتبع مراحل تطورها (مرجع 13 ص 15). أما الأنثروبولوجيون في القرن العشرين-وخاصة الوظيفيون-فقد وجدوا في المجتمعات البدائية أنسب أشكال الحياة الاجتماعية التي تساعد على دراسة النظم الاجتماعية كأجزاء مترابطة في النسق الاجتماعي.

كذلك يسهل في هذه المجتمعات القيام بالملاحظة المباشرة لوقائع الحياة اليومية، والوقوف على ترابط النظم الاجتماعية بعضها مع بعض في صورة متكاملة. ولعل من الأسباب التي جعلت أنثروبولوجيا الربع الأول من القرن

العشرين تركز أيضا على هذا النوع من المجتمعات دون غيره، هو تعرضها للتغير واحتمال الاندثار السريع لملامح الثقافة البدائية، نتيجة تعرض هذه المجتمعات إلى الاحتكاك الثقافي بالعالم الغربي (مرجع 13 ص 16).

رغم التبريرات والأسباب اللتين قدمها إيفانز بريتشارد لاختيار المجتمعات والثقافات البدائية كمجال دراسي وحقل عملي للأثنولوجيا، فقد ربط الكثيرون بين هذا الاختيار وبين أيدلوجية الأهداف الاستعمارية لدول أوروبا الغربية، وأوضحوا أن الصلة بين الأثنولوجيا والاستعمار التي بدأت منذ نشأتها إبان القرن التاسع عشر لم تنته. وذلك لارتباطها الوثيق بسياسة الإدارة غير المباشرة للمستعمرات البريطانية بصفة خاصة. فقد قامت هذه السياسة على أساس دعم فكرة التطور التدريجي أو البطيء للمجتمعات الواقعة تحت الاستعمار، الأمر الذي يدعو إلى بقاء الأنظمة السياسية التقليدية في تلك المجتمعات على الحال التي هي عليه وبالقدر الذي يسمح لسلطات الاحتلال بمباشرة إدارة هذه المستعمرات واستغلال مواردها دون عناء. ويؤخذ على الوظيفيين الإنجليز تأييدهم هذه السياسة، لأنها تتضمن-من وجهة نظرهم-استمرار الحياة التقليدية لشعوب المستعمرات والتي كانوا قد تعاطفوا معها، ووجدوا فيها مجالا طيبا للدراسة الأنثروبولوجية الحقلية التي شجعتها ومولتها الحكومة البريطانية. وعلى المستويين النظري والمنهجي، فقد رأى البعض قصورا كبيرا في المدرسة البنائية الوظيفية يتمثل في أن الدراسات المزامنة قد أغفلت أو على الأقل قللت من أهمية دراسة وتحليل ظاهرة التغير التي توجد في كل المجتمعات ولو بدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة. لهذا رأى كثير من الباحثين أن أعمال الوظيفيين تتضمن وصفا للمجتمعات البدائية، و كأنها في حالة ثبات واستقرار دائمين، وهذا أمر يتنافى مع طبائع الأشياء وأمور الحياة. ويذكر الذين يدافعون عن اتجاهات الوظيفيين أنهم لم يهملوا في حقيقة الأمر دراسات التغير في حد ذاتها، وإنما وجدوا أن دراسة تاريخ النظم الاجتماعية أو السمات الثقافية لن يساعد الباحث على فهم الوظائف الفعلية لتلك النظم أو الترابط القائم بين بعضها البعض (مرجع 183 ص 53).

فقد ذكر مالينوفسكي في كتابه «ديناميكيات التغير الثقافي» الذي نشر بعد وفاته، أن دراسة التغير الثقافي لا تستلزم التأويل التاريخي. لأنها في

الحقيقة تتضمن مقارنة بين ثقافتين تسودان مجتمعين مختلفين، وفي فترتين زمنيتين مختلفتين أيضا، الأمر الذي لا يدعو إلى ضرورة تتبع الأحداث والظواهر الثقافية عبر الزمن. فالاتجاه الوظيفي لدراسة التغير الثقافي أو الاجتماعي-في رأي مالينوفسكي-يقوم على افتراض وقت محدد، أو فترة معينة لتكون بمثابة نقطة صفر، وفاصل زمني بين فترتين مختلفتين لكل منهما ثقافة خاصة، وبهذا تتم المقارنة بين الأوضاع التي كانت سائدة قبل الخط الفاصل أو نقطة الصفر والأوضاع القائمة بعدها. وبهذه الطريقة يتسنى للباحث الأنثولوجي دراسة كل ثقافة في إطارها التكاملي وكيانها المستقل وفترتها الزمنية الخاصة بها (مرجع 158 ص 14- 26).

وفي مجال منهج الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية للمجتمعات البدائية، نود الإشارة أولا إلى أنه قد سبق أن ذكرنا أن الأنثولوجيا كانت قد اعتمدت في نشأتها النظرية، واستقلالها الأكاديمي على معلومات ومادة مستقاتين من مصادر ثانوية. بمعنى أن الباحثين الأنثروبولوجيين لم يقوموا أنفسهم بإجراء الملاحظة أو المشاهدة لما وصفوه من سلوك. وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك هو لويس مورجان الذي كان بحكم طبيعة عمله كرجل قانون بين قبائل الأيركو الهندية قد تهيأت له الفرصة للملاحظة، والتحدث مع أفراد القبيلة. وعلى عكس التطوريين فإن اهتمام الوظيفيين البالغ بإظهار الترابط بين الأشياء كلها بداخل ثقافة معينة قد تطلب ضرورة الملاحظة المباشرة عن طريق الدراسات الحقلية، التي سبق أن بدأت أهميتها تتضح في عام 1898 م عندما قامت بعثة جامعة كمبردج البريطانية بدراسة منطقة مضايق توريس في المحيط الهادي كما ذكرنا في الفصل السابق. هذا وقد ساعد مالينوفسكي على تطوير الدراسة الحقلية ووضع أسسها المنهجية في ضوء دراساته العميقة في جزر التروبرياند التي ذهب إليها قبل الحرب العالمية الأولى، ومكث هناك حتى نهايتها حوالي (أربع سنوات) وبذلك ضرب مالينوفسكي الرقم القياسي للفترة الزمنية المتواصلة التي يمكن أن يقضيها الباحث الأنثروبولوجي في المجتمع موضع الدراسة. تعلم مالينوفسكي لغة سكان هذه الجزر وعاش نفس نمط معيشتهم، مما ساعده على التعمق في فهم ثقافتهم وتحليل مكوناتها والربط بينها. قضى مالينوفسكي معظم أوقاته يؤلف ويكتب المقالات عن تجربته الحقلية ونتائج

دراسته التي تضمنت وصفا وتحليلا للأحوال الاقتصادية وأشكال الضبط الاجتماعي ونظم الزواج وعلاقات القرابة عند سكان جزر التروبرياند إلى جانب السحر والدين والطقوس عندهم.

نشر مالينوفسكي في عام 1922 كتابه المشهور «بحارة غرب المحيط الهادي الجسورون Argonauts of Western Pacific» ووضع فيه أسس وقواعد الدراسة الحقلية ومتطلباتها. إن القارئ لمقدمة هذا الكتاب ليستمتع حقا بوصف مالينوفسكي للظروف التي أحاطت بإجراء الدراسة، شارحا بأسلوب واضح، وممتع وقائع خبرته، ومستخلصا مسائل منهجية، وأساسية للدراسة الحقلية. إن قيمة الدراسة الحقلية-في رأيه-تكمن في أن يتفهم الباحث الأنثوجرافي بعمق كيف ينظر الأهالي إلى العالم المحيط بهم وكيف يتعاملون معه (مرجع 158 ص 25). ويمكن أن نقدم فيما يلي بعض أساسيات منهج الدراسة الحقلية وذلك على النحو التالي: أ-يؤكد مالينوفسكي أنه لا يمكن الوصول إلى فهم عميق ودراسة مركزة وشاملة لثقافة جماعة ما، ما لم يقم الباحث بالاتصال المباشر والمعاشرة اليومية لسكان المجتمع موضع الدراسة. ولا يكفي أن يذهب الباحث إلى منطقة الدراسة كزائر ثم يعاود زياراته إلى القبيلة أو الأفراد الذين يصف حياتهم بل يجب عل الباحث أن يندمج مع الجماعة التي يدرسها اندماجا كليا، ويعيش حياتهم بقدر الإمكان بحيث يستطيع ملاحظة مظاهر نشاطهم اليومي، ويتابع حياة الجماعة من داخل الجماعة وليس من خارجها. و يقترح مالينوفسكي أنه لابد من أن يقضي الباحث عاما كاملا على الأقل في مجتمع الدراسة حتى يتسنى له ملاحظة وتسجيل أوجه نشاط الجماعة في الفصول المختلفة وعلى مدار السنة (مرجع 127 ص 333).

ب-يوصي مالينوفسكي بتعليم الباحث الأنثروبولوجي لغة المجتمع موضع الدراسة، لأن الاستعانة بالمترجمين لا تساعد الباحث كثيرا في تكوين علاقات شخصية مع أفراد الجماعة في المجتمع موضع الدراسة، كما أنه قد يغيب عن الباحث أيضا فهم الكثير نتيجة للصلة بين اللغة والثقافة، الأمر الذي لا يستطيع الحصول عليه عن طريق الترجمة، خاصة أن معرفة المترجمين للغات الأجنبية تكو ن غالبا محدودة (مرجع 127 ص 333).

ج-يؤكد مالينوفسكي أن إقامة الباحث الأنثروبولوجي بمجتمع الدراسة،

وتعلم لغة سكان المجتمع أمران ضروريان لأنهما يساعدان على ما أسماه «الملاحظة بالمشاركة» وهي طريقة جمع المادة عن طريق الاشتراك في الأنشطة اليومية لسكان المجتمع موضع الدراسة، بمعنى ألا يقف الباحث موقف المشاهد عن بعد. وإنما يلجأ إلى المشاركة الفعلية فيما يقوم به الأفراد في المناسبات المتعددة والمجالات المختلفة التي تشكل أساسا جوهريا في فهم الثقافة، فالباحث في رأي مالينوفسكي لا يمكنه الوصول إلى حقيقة المعاني الرمزية أو الضمنية لسلوك معين في مناسبة خاصة، دون أن يكون له فرصة الجمع بين الملاحظة والمشاركة في نفس الوقت. (مرجع 127 ص 333).

وبعد هذا العرض الموجز لجوهر الاتجاه البنائي الوظيفي، وبعض قواعد منهج الدراسة، يمكن القول أن عشرينات وثلاثينات القرن العشرين قد نقلت الأثنولوجيا من إطارها التقليدي القديم إلى منطلقها التجريبي الحديث. فالممارسة الميدانية التي ركز عليها الوظيفيون قد أعطت مفهوما جديدا لدراسة المجتمعات البدائية، إذ هدفت إلى فهم حياة هذه المجتمعات كما هي من الداخل، وليس بقصد تصوير أو إعادة تركيب الأشكال الأولية للنظم الاجتماعية. كما جاء في فكر المنهج التاريخي في دراسة الثقافات الإنسانية. بذلك انتزع الوظيفيون الأثنولوجيا من منهج إعادة تركيب التاريخ الذي يقوم على أساس من الحدس والتأويل الظني، وأدخلوها في إطار الوصف والتحليل للحاضر والواقع الذي يستند على المشاهدة والمقارنة. فالباحث-على عكس الوضع في القرن التاسع عشر-أصبح جامعا للمادة ومحللا ومنظرا لها في نفس الوقت. بهذا أحدثت المدرسة الوظيفية تطورا كبيرا في المنهج والنظرة التحليلية لثقافات المجتمعات البدائية.

لقد ساد هذا الاتجاه إلى الدراسة الميدانية في إنجلترا آنذاك وكان لكتابات مالينوفسكي-في الحقيقة-أثرها الكبير في جذب عدد كبير من الدارسين «من مختلف التخصصات» إلى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، التي اتخذها مالينوفسكي مركزا له خلال الفترة من 1924 إلى 1938. كما نتج عن ذلك أن خرج عدد لا بأس به من هؤلاء الدارسين إلى العمل الحقلي في جزر نائية عن أوروبا، وفي المحيط الأطلسي بصفة خاصة، نتيجة جهودهم الميدانية، دراسات قيمة نذكر من بينها دراسة رايموند

فيرث الشهيرة «نحن أهل تيكوبيا 1936 (We the tikopia). واستمر الاهتمام بالدراسات الحقلية للمجتمعات البدائية وفق تعاليم مالينوفسكي قائما حتى خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، إلى أن استطاع رادكليف براون أن يسيطر على الفكر الأنثروبولوجي الإنجليزي، وأن يوجهه بعيدا عن العمل الأثنوجرافي الميداني إلى الفكر النظري في إطار التحليل البنائي للعلاقات الاجتماعية داخل مجتمع الدراسة. وهكذا انتقل التوجيه الأنثروبولوجي بإنجلترا من لندن إلى أكسفورد حيث تركز أصحاب المدرسة البنائية مثل إيفانز بريتشارد ومايرفورتس وعلى رأسهم رادكليف-براون الذي تولى منصب الأستاذية بجامعة أكسفورد في عام 1937.

ونتيجة لذلك، بدأ الأنثروبولوجيون الاجتماعيون يهتمون بمسائل جديدة مثل دراسات القرابة والنظم السياسية بصفة خاصة، وفي نقل العمل الحقلي من المحيط الهادي إلى أفريقيا. ومن الجدير بالذكر هنا أنه ظهرت في عام 1940 ثلاثة أعمال لها أهميتها في توجيه الفكر والدراسة الأنثروبولوجية في إنجلترا خلال فترة ما بعد الحرب. أولها كتاب «الأنساق السياسية الأفريقية» African Political Systems، الذي ألفه مايرنويتس وإيفانز-بريتشارد، وقدم له رادكليف براون، وثانيهما وثالثهما كتابا إيفانز-بريتشارد عن «النوير» The Nuer والنسق السياسي عند الأنيوك The Political System of the Anuak(مرجع 147 ص 84). وترجع أهمية تلك الأعمال إلى أنها تناولت موضوعات جديدة مثل دراسة الأنساق السياسية لمجتمعات ليس لديها حكومة مركزية مثل السودان الإنجليزي المصري حينذاك. كما كشفت تلك الأعمال أوجها جديدة للأنساق السياسية الانقسامية والتي حللت أيضا العلاقات القرابية بتلك المجتمعات وذلك على مستوى العلاقات الشخصية. إن هذه الدراسات-في مجملها-قد وضعت أساسيات الدراسات الحقلية للأنثروبولوجيين الإنجليز بمجتمعات أفريقيا خلال عقد الخمسينات (مرجع 147 ص 84- 85).

- الاتجاه التاريخي- النفسي:

ازدهر الاتجاه البنائي-الوظيفي في أوروبا وخاصة بريطانيا، كما وجد اتباعا له في بعض الجامعات الأمريكية كما رأينا. أما الاتجاه التاريخي

التجزيئي الذي دعا إليه بواز ونشأت في إطاره الأثنولوجيا الأمريكية، فقد بدأ يتعدل ويتجه في مسارات جديدة وذلك على يد عدد من تلاميذ بواز، فهناك من طرح فكرة توسيع مفهوم التاريخ، وهناك من تأثر بما يجري في ميدان علم النفس وخاصة على أيدي سيجموند فرويد S.Freud(1856-1939) وتلاميذه، ورأوا إمكانية فهم الثقافة عن طريق التاريخ إلى جانب الاستعانة ببعض مفاهيم علم النفس وطرقه التحليلية. وبرز أثر ذلك اتجاه نحو الكشف عن التشكيلات أو الأنماط الثقافية عند الشعوب أو الجماعات الإنسانية.

فمن ناحية النظرة المعدلة لاستخدام التاريخ في الدراسات الاثنولوجية، نجد أن الأمريكي الفرد كوبر (1876- 1960م) قد رأى أن التاريخ لا يعني فقط دراسة تتابع الظواهر والأحداث في الزمن، كما فهمه الوظيفيون، وإنما يهدف في النهاية إلى إعطاء وصف متكامل لموضوع الدراسة، وبهذا يمكن استخدام التاريخ في دراسة الوقائع والأحداث الجارية في مجتمع معين. وعلى أساس هذا التوسع في مفهوم التاريخ عند كروبر باعتباره منهجا يأخذ في الاعتبار عنصري الزمان والمكان، تصبح الأثنولوجيا دراسة تاريخية في المقام الأول ويكون هدفها هو التمييز بين النماذج أو الأنماط الثقافية التي يمكن استخلاصها من الدراسة المقارنة للشعوب.

وبالرغم من محاولة كروبر توسيع مضمون المنهج التاريخي إلا أن البعض الآخر من تلاميذ بواز وفي مقدمتهم روث بنيديكت R.Benedict (1887-1948 م) قد وجدوا أن التاريخ وحده لا يكفي لتفسير الثقافة، وذلك أنها-في تصورهم-مسألة معقدة تجمع بين التجربة التي اكتسبت عبر الزمن وخلال التاريخ، والتجربة السيكولوجية، وأن أية سمة من السمات الثقافية تضم بذلك مزيجا من النشاط السيكولوجي والثقافي بالنسبة لبيئة معينة (مرجع 6 ص 227)، وكان من نتيجة ذلك أنهم لجؤوا إلى الاستعانة بمفاهيم علم النفس. وقد كانت دراسة بنيدكت المشهورة[8] «أنماط الثقافة» (1932 م) Patterns of Culture بداية لبلورة هذا الاتجاه التاريخي النفسي لدراسة الثقافات. فقد أوضحت في هذا الكتاب ضرورة النظر إلى الثقافات في صورتها أو تشكيلها الإجمالي. فكل ثقافة في نظر الباحثة روث بنيدكت ترتكز حول مبدأ أساسي أو محور رئيس يعطيها نمطا أو تشكيلا خاصا بها

ومميزا لها عن غيرها من الثقافات. وقد قامت بنيديكت بإجراء دراسة مقارنة لعدة ثقافات بدائية حيث أوضحت العلاقات القائمة بين «الصيغة الثقافية العامة ومظاهر الشخصية. كما تنعكس لدى الأفراد في تلك المجتمعات (مرجع 127 ص 302). وربما تجدر الإشارة هنا إلى أنه بينما «بدأ مالينوفسكي نظرته للثقافة من الفرد، واعتبر الظواهر الثقافية مشتقات من الحاجات الفردية. بدأت روث بنديكت من «الصيغ الثقافية» واعتبرت السلوك الفردي مجرد اتفاق وتواؤم مع التعاليم، والمثل والقيم، والاتجاهات الثقافية الموجودة بالفعل»(مرجع 6 ص 239).

إن محاولة الاستعانة بمفاهيم علم النفس في مجال الدراسات الاثنولوجية ليست بالأمر الجديد في حقيقة الأمر، إذ أنها كانت قد طرحت إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، عندما لجأ البعض إلى الاستبطان للتعرف على أصل السمات الثقافية ونشأتها وخاصة في مجال دراسات الظواهر الدينية والسحر والأساطير. إلا أن هذا الاتجاه لم يزدهر خاصة تحت تأثير المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي رأت أن الظواهر الاجتماعية لا بد وأن تفسر في حدود علم الاجتماع، لا علم النفس كما جاء في كتابات دوركايم وخاصة في كتابه الشهير عن قواعد المنهج في علم الاجتماع. ورغم استمرار الاعتراض لدى كثير من الأثنولوجيين في أمريكا والأنثروبولوجيين الاجتماعيين في إنجلترا على استخدام علم النفس لتفسير الثقافة أو الظواهر الاجتماعية، فقد وجد هذا الاتجاه التاريخي-النفسي في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين فرصة طيبة للازدهار بسبب انتشار نظريات التحليل النفسي، ودراسات الشخصية خاصة وقد استعان بعض الأنثروبولوجيين بالمفاهيم النفسية التي قدمتها مدرسة سيجموند فرويد بصدد تحليل العلاقات القائمة بين الثقافة والفرد وتأثير كل منهما على الآخر.

وربما كان من أهم الموضوعات التي ركز عليها الأثنولوجيون النفسيون، دراسة التميز بين الجماعات والثقافات تبعا للخصائص النفسية السائدة فيها. وظهر نتيجة لذلك عدد من الدراسات التي عالجت موضوع الطابع القومي للشخصية الذي يهدف إلى تحليل وتفسير المقومات النفسية الرئيسة التي يتميز بها شعب دون آخر أو ثقافة دون أخرى. وقد ازدهرت هذه

الدراسات لارتباطها بالدعاية وأحداث الحرب العالمية الثانية، وظهرت عدة مؤلفات عن الشعوب المشتركة في الحرب، خاصة اليابان. ولم يقتصر الأمر عند حد الدراسة النظرية وإنما شمل أيضا إمكانية توظيف المادة الأنثروبولوجية لأغراض عملية (مرجع 127 ص 302).

ولعل من أهم الممارسات التطبيقية في هذا المجال دراسة روث بنيدكت بعنوان «زهرة الكريزتنم والسيف» (1946) The Chrsyanthenum and the Sword وهي تمثل دراسة الثقافة والشخصية اليابانية. وقد كان لهذه الدراسة [9] قيمة كبيرة في بلورة السياسة الأمريكية نحو استسلام المحاربين اليابانيين في المحيط الهادي. فبناء على ما أوضحته هذه الدراسة عن أهمية الإمبراطور كرمز مقدس في العقلية اليابانية، واحترام الجنود الشديد للسلطة الحاكمة في شخص الإمبراطور، ومدى ولائهم له أبقت الحكومة الأمريكية على مركز الإمبراطور وأيقنت أنه من الحكمة أن يصدر الإمبراطور الياباني تعليمات الاستسلام لجنوده الذين كانوا يحاربون في جنوب شرق آسيا، وبهذا تم تفادي حقن كثير من الدماء التي كان من الممكن أن تسيل فيما لو طلبت القوات الأمريكية النازية من الجنود اليابانيين الاستسلام. أوضحت الدراسة أن الجنود اليابانيين كانوا سيرفضون قطعا الاستسلام، ويستمرون في القتال حتى الموت ولكن تحت تأثير مبادئ الطاعة والولاء التقليدي للإمبراطور خضع هؤلاء الجنود لتعليماته (مرجع 127 ص 510).

كذلك نجد بعض كتابات الأنثروبولوجيا خلال الثلاثينات والأربعينات، قد تناولت العنصرية ونقدتها، وذلك في مواجهة محاولات أدولف هتلر A.Hitler (1889- 1945). العنصر الألماني من العناصر الدخيلة، وخلق نوع من البشر يتميز عن السلالات الأخرى في القدرات العقلية والجسمية. ونتيجة لذلك أخذت مسألة السلالات والعناصر البشرية مكانا مميزا في الدراسات الأنثولوجية في ذلك الوقت، بسبب الأحداث السياسية التي كانت واقعة حينذاك.

وفي الوقت نفسه ظهرت مدرسة ثقافية نفسية قوية في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان من روادها كلايد كلوكهونC.Klucholn (1905-1960) ومرجريت ميد، كما اشترك بعض علماء النفس مع الأنثولوجيين في إجراء دراسات وتحليلات مشتركة. نذكر منها مثلا العالم النفسي أبرام كاردنر A.Kardner

الذي اشترك مع الباحث الأمريكي رالف لينتون (1893- 1953 م) وغيره خلال الثلاثينات من القرن العشرين في طرح مفهوم بناء الشخصية الأساسي الذي يشير إلى مجموعة الخصائص السيكولوجية والسلوكية، التي يبدو أنها تتطابق مع كل النظم والعناصر والسمات التي تؤلف أية ثقافة (مرجع 6 ص 238). ركّز كاردنر على ما أسماه بالمنظمات أو النظم الأولية، التي ترتبط بتربية الأطفال في سنواتهم الأولى والتي تختلف من ثقافة إلى أخرى[10]. ويفترض كاردنر أنه نتيجة لاشتراك مجموعة من الناس في نوع معين من النشأة والتربية خلال مرحلة طفولتهم، تسود سمات شخصية مشتركة بينهم عندما يكبرون، وترتبط هذه الصفات بالتشكيل النهائي للثقافة السائدة بين هؤلاء الأفراد. ومع أن النمط أو التشكيل الثقافي السائد لا يمكن أن يزيد أو يقلل من وجود الفوارق الفردية في نطاق الثقافة الواحدة، إلا أن العلاقة بين الأنماط الثقافية والشخصية الفردية والتأثيرات المتبادلة بينهما أمر لا يجب إهماله في حالة حراسة الثقافات الإنسانية (مرجع 127 ص 303- 304)، انظر كذلك مرجع 126).

وكما كان الحال بصدد الترابط والحوار اللذين كانا قائمين بين الاتجاه البنائي الوظيفي في الأنثروبولوجيا، والاتجاه الوظيفي أيضا في علم الاجتماع، نجد أن حوارا وترابطا آخر قد شمل الأنثروبولوجيا وعلم النفس. نذكر مثلا أن مالينوفسكي اهتم بكتابات فرويد، وفحص نظريته عن المحرمات الجنسية في إطار المادة الحقلية التي كان قد جمعها من جزيرة الروبرياند. وفي هذا الصدد خالف مالينوفسكي تفسير فرويد لعلاقة الابن بالأم وغيرته من الأب في إطار ما أسماه بعقدة أوديب[11]. وقدم بدلا عنها تفسيرا وظيفيا. فالمحرمات الجنسية التي توجد في كل المجتمعات الإنسانية، تمثل وسيلة يستطيع المجتمع من خلالها تنظيم العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء من الأقارب في العائلة الواحدة، ومن هذه العائلة والأقارب الآخرين على اختلاف درجات القرابة. إن تحريم العلاقات الجنسية بين الأفراد المكونين للعائلة النووية (الأم والأبناء، والاخوة والأخوات) يمنع في نظر مالينوفسكي ما قد ينشأ من صراعات داخلية بسبب الغيرة والتنافس، الأمر الذي يفكك أواصر الأسرة ويهدم كيانها وبالتالي يضعف المجتمع ككل ويهدد تماسكه (مرجع 127).

لقد عرضنا في هذا الفصل لثلاثة اتجاهات رئيسة. تبلورت وسادت خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين، وذلك كرد فعل على نواقص النظرية التطورية، وبتأثير المناخ الفكري العام والأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة خاصة في الغرب، وكذلك التطورات التي حدثت أيضا في موضوعات ومناهج، العلوم بصفة عامة، والعلوم الاجتماعية بصفة خاصة. ومما هو جدير بالذكر أن تلك الاتجاهات المشار إليها لم تنشأ الواحدة بعد الأخرى على النحو الذي عرضناه، أو أن هناك تواريخ معينة، تحدد قيام أي اتجاه، وذلك لأن تلك الاتجاهات جميعها قد نشأت وتطورت وتبلورت خلال فترة الثلاثين أو الأربعين عاما الأولى من القرن العشرين، وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية على وجه التقريب، الأمر الذي يجعلنا نخصص الفصل التالي للحديث عما أسماه الأنثروبولوجي الأمريكي المعاصر أيزيك وولف E.Wolf «بالأنثروبولوجيا الجديدة» New Anthropology التي بدأت تظهر وتتطوّر عقب الحرب العالمية الثانية حتى الوقت الحاضر(منتصف الثمانينات).

وقبل أن ننتقل إلى هذا الفصل الجديد من تاريخ عالم الإنسان يجب ألا يغفل عن بالنا أن ما قدمناه هنا من اتجاهات أنثروبولوجية (أو أثنولوجية بمعنى أدق) قد استمدت مقولاتها الرئيسة وبلورت مفاهيمها بتأثير رافدين فكريين رئيسين من أوروبا، أحدهما من ألمانيا والآخر من فرنسا. وإن كان للأخذ في حقيقة الأمر بالتأثير الأكبر والأعم. ففي ألمانيا، برز اتجاه جمع بين الجدلية الفلسفية والنظرة الواقعية في إطار الدعوة إلى إعادة بناء المجتمع الألماني، وربما المجتمع الأوروبي الغربي بصفة عامة. كانت هناك فلسفة اجتماعية متعددة الجوانب ومن بينها أعمال كارل ماركسK.Marx (1883- 1818) إلا انه كان لمدرسة فرانكفورت التأثير الأقوى في بلورة نوع من الفلسفة النقدية، خاصة خلال الثلاثينات والأربعينات وخاصة في إطار أفكار ماركس وهوركها يمر والحوار الذي قام بينه وبين الفيلسوف الألماني هربرت ماركيوز. فقد دعا ماركيوز في كتابه الشهير «العقل والثورة»[12] إلى إبراز دور العقل القوي في حياة الإنسان وبذلك نقد الاتجاه التقليدي المحافظ في تحديد إمكانيات الفرد في المجتمع، وقد توافقت تلك النظرة وهذا الاتجاه «البرجماتي» كما عرف مع ما قدمه جون ديوي في كتاباته الأدبية

كما سبق أن أشرنا في بداية هذا الفصل. فالإنسان في نظر مدرسة فرانكفورت النقدية له وجوده، ولديه إمكاناته وطاقاته، التي يجب أن تكون محورا لإعادة بناء المجتمع البشري، وأن ينظر إلى هذا الكائن على أنه قادر على إدارة أموره بنفسه، وبطريقة خلاقة يعتريها أجواء تجمع بين المثالية والواقعية (مرجع 87 ص 561).

وفي إطار الفكر الأنثروبولوجي يمكن القول بأن هذا الاتجاه قد وجد صداه وتطوره في أطر ومفاهيم جديدة سنشير إليها فيما بعد عندما نتحدث عن «الاتجاهات الراديكالية» التي سادت خلال الستينات. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، ففي مجال الأنثروبولوجيا، نجد أن النزعة القومية والدعوة العنصرية الجرمانية، قد ساعدتا خاصة في سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية، في أداء عدة دراسات في السلالات وتصنيفها وربطها بالحضارات الإنسانية. كذلك كان التأثير الألماني واضحا في مدارس الانتشار الثقافي كما سبق أن أشرنا. أما عن الرافد الفرنسي نود الإشارة إلى أن الكتاب العرب قد تناولوا الفكر الاجتماعي الفرنسي وخاصة المدرسة الدوركايمية بالعرض والتحليل المسهب. وينظر كثير من مؤرخي الأنثروبولوجيا إلى أميل دوركيم على أنه عالم اجتماع وعالم أنثروبولوجيا في نفس الوقت. وأن دورية الحولية الاجتماعية الشهيرة، التي سبقت الإشارة إليها، قد تضمنت أبحاثا اجتماعية وأثنولوجية لعبت دورا كبيرا في إثراء الحوار بين الأفكار والاتجاهات السوسيولوجية والأثنولوجية، سواء ما كان منها فرنسيا أو ألمانيا أو بريطانيا. ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى ما جاء في كتاب جان بواريه عن وضع الأثنولوجيا الفرنسية خلال هذه الحقبة من القرن العشرين، والتي كانت لها تأثيراتها على الاتجاهات الاثنولوجية الثلاثة المشار إليها مسبقا. ويضع بواريه عام 1930 حدا فاصلا بين فترتين مميزتين، فهو يرى أن الفكر الفرنسي قبل هذا التاريخ، قد تبلور أساسا حول أفكار وأعمال أربع شخصيات رئيسة[13] وهي ايميل دوركيم، و س بوجلية C.Beuglee، ولوسيان ليفي برول L.Levy Brule (1857-1939)ومارسيل موسى الذين كانوا فلاسفة نظريين بمعنى الكلمة.

ومع ذلك فان كتاب ليفي برول[14] «عن العقلية البدائية»(1922) La Mentalite Primitive وبحث موسى بعنوان «مقال عن آلهة: صورة قديمة

للتبادل [15] (1925) L.Essai Sur Le don Forme archaique de L'echange هما في حقيقة الأمر مؤلفان أثنوجرافيان من الدرجة الأولى وان كانا قد اعتمدا على مادة حقلية سبق جمعها من المجتمعات البدائية.

وبالرغم من وجود عدة مدونات أثنولوجية كتبت من خلال الثلاثة عقود الأولى من القرن العشرين، إلا أن مؤلفيها لم يكونوا أثنولوجيين متخصصين، وإنما كانوا إداريين بالمستعمرات الفرنسية، أو رحالة أو مبشرين في أغلب الأحوال. ولهذا جاءت مادتهم ناقصة، سيئة العرض، عديمة المنهج أحيانا، ومتحيزة التفسير. ومع ذلك فقد كان هناك بعض الأعمال التي لها قيمتها والتي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، دراسات جودفيري-ديمومبين Gaudefroy Demombynes عن «النظم الإسلامية (1921)Les institutions muslumanes (مرجع 124) وموريس، هناك أيضا دراسة لينهاردت. M.Leenhardt في كتابه «مذكرات أثنولوجية عن كاليدونين الجديدة» (1925) Notes d'ethnologie neo caledonienne وكذلك أ. جيراندييبة. A.Grandidier اللذان كتبا في عام 1928 عن التاريخ الطبيعي والسياسي لمدغشقر Histoir physique naturelle ET politique de Madagascar مرجع 179 ص 118).

ويقول بواربيه أن الأثنولوجيا الفرنسية المتخصصة والعلمية لم تبدأ في حقيقة الأمر إلا في مايو عام 1931 عندما بدأت بعثة داكار جيبوتي[16] رحلتها عبر أفريقيا بدء من السنغال وبإشراف الأثنوجرافي مارسيل جريول M.Griaule إلا أن هذا الرأي ربما يحتاج إلى مراجعة وإذا أردنا الآن أن نذكر في سطور موجزة الإطار العام لتطور الأثنولوجيا منذ بدايات القرن العشرين حتى السنوات التالية للحرب العالمية الثانية، يمكن لنا أن نصف هذه الحقبة بأنها تمثل مرحلة انتقالية بين الأنثروبولوجيا الكلاسيكية، أو أنثروبولوجيا العصر الفيكتوري كما يسميها البعض، والأنثروبولوجيا الجديدة التي بدأت في الظهور عقب أحداث الحرب العالمية الثانية وما ترتب عنها من نتائج سياسية واجتماعية وفلسفية، سواء في الغرب أو البلاد التي كانت واقعة تحت سيطرته. ويمكن القول أيضا أن الأنثروبولوجيا خلال مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية، قد انتقلت بدراسة الثقافة (الحضارة) من العام إلى الخاص، أو بمعنى آخر من دراسة الثقافة أو الحضارة الإنسانية في مجملها، إلى دراسة الثقافات الإنسانية في جزئياتها، وكوحدات متنوعة لكل منها

كيانه الخاص والمميز عن الآخر، سواء في تكوينه التاريخي أو نظمه الاجتماعية.

كذلك شهدت هذه الحقبة تطورين رئيسين آخرين يتعلق أولهما بالمنهج، حيث برز الاهتمام بالجانب الميداني، والاعتماد على المادة الأولية التي يجمعها الباحث ذاته عن طريق استخدام منهج الدراسة الحقلية (الاتجاه البنائي الوظيفي)، وكذلك استخدام الاختيارات السيكولوجية كأدلة معملية (الاتجاه النفسي). ولم يقتصر هذا المنهج التجريبي الأنثروبولوجي على دراسة الجماعات المنعزلة أو الثقافات البدائية بل امتد إلى القطاعات المدنية ونذكر على سبيل المثال دراسة لينـد H.M.Lynd عن الأنماط الثقافية لمدينة ميدل Middle Town الأمريكية (1930) وكذلك دراسة لويد وارنر وزملائه التي شرحوا فيها التركيبات العامة للطبقات والمستويات والمكانة الاجتماعية للسلالات البشرية في إحدى المدن الأمريكية، التي أطلقوا عليها اسما مستعارا «يانكي سيتي» 1942(Yankee city)، (مرجع ١١ ص 263). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، برز ميل نحو التخصص بين الأنثروبولوجيين، حيث أن مجالات الأنثروبولوجيا ذاتها بدأت تتحدد وتتبلور بصورة أوضح. ففي إنجلترا مثلا نجد أن الأثنولوجيا انتقلت من عهد تايلور إلى نوع من الاثنوجرافيا عند مالينوفسكي، ثم اتجه رادكليف براون نحو ما أسماه «بالأنثروبولوجيا الاجتماعية»، والتي وصفها بأنها بمثابة علم واجتماع مقارنين، وكان متأثرا في ذلك بالمدرسة الاجتماعية الفرنسية. نجد أيضا أن الأنثروبولوجيا الفيزيقية والأركيولوجيا واللغويات بدأت كل منها تأخذ نوعا من الاستقلالية، وان كانت جميعها تندرج تحت الإطار العام للدراسات الأنثروبولوجية. لهذا قل الاتجاه الموسوعي في كتابات الأنثروبولوجيين هذه الحقيقة من القرن العشرين وذلك على عكس ما كان سائدا عند الأنثروبولوجيين الرواد في القرن التاسع عشر ومن جاء قبلهم. ومع هذا، ظل الحوار قائما بين العلماء من التخصصات المختلفة حول بعض القضايا أو المسائل المشتركة. وفي هذا المجال، تجدر الإشارة إلى جهود بعض العلماء في محاولة الربط بين التشريح وعلم النفس والأثنولوجيا، خاصة في الدراسات المتعلقة بالسلالات البشرية. ونتج عن ذلك اتجاهان متباينان، فبينما يؤكد أحدهما الصلة القائمة بين الصفات التشريحية والقدرات

العقلية، يقوم الاتجاه الآخر برفض هذه الصلة والاعتقاد بأن الاختلافات التشريحية بين السلالات لا تنهض دليلا على التفوق أو التردي في الذكاء، أو القدرة على التحصيل. وقد أسهم الأنثروبولوجيون الأمريكيون أمثال فرانز بواز والفريد كروبر في تدعيم هذا الاتجاه.

أما من ناحية المنطلق التحليلي، فقد تبلور أساسا اتجاهان متضادان حول استخدام أو رفض المدخل التاريخي في فهم الثقافة الإنسانية. إذ اهتم المناهضون للاتجاه التاريخي لدراسة الجماعات والاهتمام ببنية العلاقات الشخصية أكثر من اهتمامهم بالثقافة، وبالارتباطات المتزامنة أكثر من اهتمامهم بالارتباطات المتعاقبة. وبين الرفض والقبول، للمنهج التاريخي، برزت محاولات توفيقية لدى الأنثروبولوجيين في الولايات المتحدة بينما أحجم زملاؤهم بإنجلترا عن اتجاههم اللاتاريخي في إطار البنائية الوظيفية. وعلى أية الأحوال، وأيا كان المنطلق التحليلي، فقد خرج إلى ساحة الفكر الأنثروبولوجي عدة مصطلحات ومفاهيم وقضايا إنسانية رئيسة، شكلت أرضية لحوار أكاديمي وتجريبي مختلف تماما عما كان عليه الأمر في القرن الماضي، كما مهد لمرحلة جديدة بدأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية وتبلورت في اتجاهاتها في خمسينات وستينات هذا القرن كما سنرى في الفصل التالي.

الهوامش

1- للحصول على شرح المذهب الوجودي لدى جان بول سارتر وغيره نوصي القارئ بالاطلاع على كتاب «الوجودية» لجوي ماكوري (مرجع رقم 31)

2- يذكر المؤرخ إدوارد بيرنز في كتابه «الحضارات الغربية: تاريخها وثقافتها» أن الفلسفة البراجماتية التي دعا إليها ديوي قد لاقت بعض النقد لأنها فشلت في الحصول على إجابات شافية لأي من مسائل الحياة الرئيسة، مثل طبيعة الكون ومعنى الحياة، وإمكانية وجود خالق ترد إليه الأمور وتشكيل الحياة الإنسانية. هذا ويجدر التنويه بأن اتجاه ديوي الواقعي واللاميتافيزيائي قد وجد تجاوبا عند برتراند راسل Bertrand Russel الفيلسوف الإنجليزي الذي كان له دور كبير في تدعيم الفلسفة الواقعية في القرن العشرين. (مرجع 107 ص 892).

3- هذه الفكرة-ليست في حقيقة الأمر-جديدة كلية، إذ أننا نجد ان اسحق نيوتن قد كتب كتابا في أوائل القرن الثامن عشر عن الترتيب الزمني للملكيات القديمة. واقام هذا الترابط، على أساس فكرة أن مصر كانت بؤرة الانتشار. (مرجع 185 ص 228).

4- تناول العديد من المؤلفين العرب خلال ما يقرب من ثلاثين عاما إلى الآن، عرض وتقديم الاتجاه الوظيفي البنائي، وبينما تزخر المكتبة العربية بتلك الكتابات نقترح على القارئ الذي يود الاستزادة أن يطلع على كتاب الأنثروبولوجي أحمد أبو زيد بعنوان «البناء الاجتماعي والمفهومات» المشار إليه في قائمة المراجع (رقم 6)، ومن ناحية كتابات أساتذة علم الاجتماع عن هذا الاتجاه وخاصة الذين تناولوه بالنقد نشير مثلا إلى كتاب «اتجاهات نظرية في علم الاجتماع» للدكتور عبد الباسط عبد المعطي (مرجع 63).

5- كتب رادكليف براون مقالا بعنوان «البناء الاجتماعي» وضح فيه المفهوم وطريقة استخدامه في دراسة المجتمع البدائي. راجع كتابه بعنوان (1952) Structure and Function in primitive Society ترجم هذا المقال د. عبد الحميد الزين ونشر في عدد (مطالعات في العلوم الاجتماعية) أشرف عل تحريره د. أحمد أبو زيد. ومن الجدير بالذكر ان هذا العدد يحتوي على مقالات أخرى عن البناء الاجتماعي بأقلام كلود ليفي ستروس وروبرت ريدفيلد وريموند فيرث وجورج جورفيتش.

6- تناول الكثيرون أعمال كل من مالينوفسكي ورادكليف براون بالدراسة والتحقيق والنقد، ولعل من الدراسات القيمة في هذا الشأن ما كتبه آدم كوبر أستاذ دراسات الأنثروبولوجيا الأفريقية بجامعة ليدن Leiden(انظر مرجع 147). ومن الطريف ان نذكر أن هورتينز بودرماكير Hortense Powdermaker رأت أن جزءا من الاختلاف بين مالينوفسكي ورادكليف براون ربما يعود إلى شخصية كل منهما، فقد اتصف الأخير بانه عزوف عن الحياة الأوروبية وغيرها، ولم تكن له علاقات أسرية وثيقة، وكانت صلاته بالنساء يشوبها التحفظ والتوتر. أما مالينوفسكي فكان مرحا، يحب الاختلاط والنكتة ولم تكن العلاقة بينه وبين طلبته مثل تلك العلاقة الجامدة، التي وصلت إلى حد القدسية بين رادكليف براون وطلبته (مرجع 147 ص 69).

7- بصدد مصطلح البدائية يمكن للقارئ الاستزادة بالاطلاع على كتاب «البدائية» ومؤلفه آشلي

مونتغيو، ترجم هذا الكتاب د.محمد عصفور ونشر في سلسلة عالم المعرفة (مرجع 15)

8- ترى بنيديكت في هذا الكتاب تطبيق النظريات الجيشطالطيةGestalt Configuration «ثلاث جماعات بدائية، من حيث أن لكل جماعة منها نمطا ثقافيا يخالف الأخرى». وقد أوضحت أن ظروف البيئة الكلية من طبيعية واجتماعية تنعكس على سلوك أفراد تلك الجماعات، ويتكيف وفقا لها طابعها الثقافي فأفراد قبائل أرابش Arapech بغينيا الجديدة يعيشون على الزراعة والرعي وينشئون أطفالهم نشأة لينة دون قسوة أو تزمت فيسود طابع الهدوء والمسالمة في حياتهم الاجتماعية العامة، وينفرون من المناقشة والصراع، ويبتعدون عن التقاتل. وتسود العلاقات الودية حياتهم الزواجية، ويوجد نوع من المساواة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات. هذا الطابع السلوكي السلمي لا يمكن أن نجده مثلا بين افراد قبائل المنداجوم Mundugumos المجاورين لهم، وذلك لأن ظروف بيئتهم الكلية مختلفة كل الاختلاف، فهم يعيشون على الصيد وقطع الأشجار، وحياتهم محفوفة بالأخطار والمخاوف، لذلك ينشأ أطفالهم على حب الصراع والمنافسة، ويشب الطفل فيجد نفسه في بيئة عدوانية مملوءة بالتنافس، وحب السطوة، والنزعة إلى السطو على الغير ويسود حياتهم العائلية القلق والاضطراب، وهذا الطابع يختلف عن طابع ثالث يسود قبائل تشامبولي Techambuli المجاورة، حيث يعيش الرجال والنساء في حيين منفصلين، وتقوم النساء بالنصيب الأكبر من النشاط الاجتماعي والاقتصادي فيستأثرن بالسلطة ويفرض سلطانهن على الرجال» (مرجع 11 ص 312- 313)

9- تمثل هذه الدراسة ما يشار إليه في المنهج الأنثروبولوجي «بالدراسة عن بعد» وتحدث عندما يتعذر على الباحث لأسباب سياسية مثلا أن يقوم بإجراء الدراسة الحقلية وجمع المادة الأولية بنفسه.

10- درس كاردينر نمط تنشئة الطفل في ثقافة آلور، وجد أن نظام توزيع العمل بين الرجل والمرأة، مثلا يلقي على المرأة أعباء ثقيلة في الأعمال الزراعية، الأمر الذي يجعلها تترك أطفالها معظم الوقت أثناء النهار، الأمر الذي «يؤثر في نوع تنشئتهم الاجتماعية ونموهم النفسي.

11- تتلخص عقدة أوديب في حب الطفل لأمه وكرهه لأبيه. ويسمي فرويد هذه الحالة بعقدة أوديب نسبة إلى الملك أوديب الذي روت الأسطورة اليونانية عنه أنه قتل اباه، وتزوج أمه من غير أن يعلم بأنهما والداه. فلما عرف الحقيقة فيما بعد فقأ عينيه حزنا وكمدا. (الذات والغرائز لسيجموند فرويد-ترجمة د. محمد عثمان نجاتي، مكتبة النهضة المصرية، 1961 ص 64).

12- ترجم د. فؤاد زكريا هذا الكتاب إلى اللغة العربية، نشر عام 1970 الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

13- تجدر الإشارة إلى أنه علاوة على ما ذكره بواريه من اسماء يجب الا تغفل أهمية أعمال فان جنيب Van Gennep. الذي انتقل من الأثنولوجيا إلى الفولكلور، وبمعنى آخر من دراسات الأنثروبولوجيا العامة (وخاصة ما يتعلق بالمجتمعات الأجنبية) إلى الدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية المتخصصة. فقد عرض نتائج دراساته الاثنولوجية في كتابه «التابو والطوطم في مدغشقر» (1904). وقدم خلاصة دراساته الفولكلورية في مؤلفه الشهير«الفولكلور الحي» (1946)

14- ألف ليفي بريل عدة كتب عن الوظائف العقلية في المجتمعات البدائية. إلا أن أهمها هو كتاب «العقلية البدائية» الذي صدر عام 1927. وفي هذا الكتاب أوضح كيف أن العقلية

البدائية تختلف اختلافا جوهريا عن العقلية المتحضرة، فلا يجوز ان نتفهم امور الحياة في الجماعات المتأخرة على ضوء ما ألفناه من تفكير أو ما اعتدنا عليه من مفاهيم، ذلك لأن البدائي لا يفرق بين الطبيعي والخارق، ولا يفرق بين الموضوعي والذاتي، ولا يفصل الواقع عن التصور والخيال. (مرجع 11 ص 205). كذلك حاول بريل فهم العقلية البدائية عن طريق دراسة اللغة وقواعدها. وقد تأثر بهذا الاتجاه فرانز بواز حيث قام في أوائل هذا القرن بدراسة حقلية مقارنة لدراسة اللغات البدائية المنتشرة في جزيرة فانكوفر بأمريكا الشمالية لفهم العقلية السائدة بين أهلها. هذا ويرجع الفضل إلى بريل في إنشاء معهد الأثنولوجيا بباريس عام 1925L.institut de L'ethnolosie والذي ألحق به «متحف الإنسان Le Musee L'homme» وليكون بمثابة مختبرا دراسي لطلاب المعهد.

15- تناول موسى في هذا الكتاب ا بالعرض والتحلل «ظاهرة أو طقوس البوتلاش Potlach ومعناها في لغة الشينوك Chinock العطية أو الإهداء، وذلك باعتبارها ظاهرة كلية، بمعنى أن لها وظائف مرتبطة ببعضها البعض، وتتصل بالنظم الاقتصادية والدينية والقانونية للمجتمعات البدائية. يمكن للقارئ أن يطلع على تفاصيل ووظيفة أكيوتلاس في كتاب موي بعنوان «علم الاجتماع والأنثروبولوجيا: بحث في الهبات والهدايا الملزمة» والذي ترجمه إلى العربية د. محمد طلعت عيسى (مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1971) وهناك أيضا عرض موجز له في كتاب رالف بيلز «مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة» والذي ترجمه إلى العربية د. محمد الجوهري وآخرون (دار نهضة مصر للطبع والنشر، الجزء الأول، 1976).

16- دون ميشيل ليفي M.Leivis الذي كان يعمل محررا بمجلة الوثائق (والذي كان مارسيل جرايول قد دعاه لمرافقة البعثة) مذكراته اليومية في كتاب شيق للغاية بعنوان أفريقيا الشبح L.Afrique Fantome (مرجع 151) ولم يقصد ليفي من هذه المذكرات وصفا إثنوجرافيا بقدر اهتمامه بتسجيل وتوثيق أعمال البعثة.